الفصل الأول

المستعمرون الأوائل

obeikandl.com

obeikandl.com

رسالة ترويض العبيد

هل يدرى القارئ أن ما نسميه بالاستغلال والاستبداد والقسوة والتعذيب ليس مجرد أفعال عشوائية تحركها الغلظة والشراسة أو عواطف الطمع والكراهية، إنها ليست كذلك فقط، إنها أيضًا خبرات وتجارب وتراكم لدروس مستفادة بحيث تصير فنونًا ومعارف يتناقلها الزبانية ويتبادلون الخبرات فيها لتكون أشد إيلامًا، ولكن التعذيب أدوم تأثيرًا وأفعل فى النفوس، وهذا يحتاج إلى دُرْبة ومران وعقل مفكر وخبرات تتداول وتتراكم.

ولعل أكثر الأمثلة وضوحًا على ذلك المحاضرة التى ألقاها «وليام لنش» مالك العبيد فى الكاريبى على ملاك العبيد فى «مستعمرة» فرچينيا الذين أتوا إليه من كل أنحائها؛ ليستمعوا إلى خبرته فى ترويض العبيد.

وكان أحد أصدقائه من ملاك العبيد فى فرچينيا بالولايات المتحدة دعاه عام ١٧١٢م؛ ليتحدث عن تجربته وأسلوبه فى السيطرة على العبيد فى مستعمرته، وما ابتدعه من أساليب وحشية وخبيثة وأفعال رهيبة لإخضاعهم.

وإذا كان ماضى البشرية يشينه ويخجله صورة العبد الإفريقى الذى اختطف وربط بالسلاسل فى رحلة عذاب طويلة إلى أرض القارات الأمريكية ليخدم السيد الأبيض ويفعل به ما يشاء هذا السيد، فإن ما يفعله الأمريكى الأبيض الآن فى بداية الألفية الثالثة بأسرى حرب أفغانستان لا يختلف كثيرًا عما فعله جدوده من قبل، فبعد أن أفرغت الولايات المتحدة شحنتها من الصواريخ والقنابل والمتفجرات فوق أفغانستان وناسها، ساقت مئات الأسرى منهم مكبلين بالأغلال داخل معتقلات، وفى حملة انتقامية لا مثيل لها، نظر العالم مشدوها، وهو يشاهد أسرابًا من

obeikandl.com

الأسرى لم تُوَجّه لهم تهمٌ ولم تصدر فى حقهم أحكام قانونية يساقون كالبهائم مصفدين فى الأغلال معصوبة عيونهم مخدرين، وينقلون كالوحوش المفترسة فى أقفاص مكشوفة من الحديد ، ويُلقى بهم فى قاعدة جوانتانامو العسكرية الأمريكية فى كوبا .

وفى صحوة ضمير خصصت صحيفة «دى ميل أون صانداى» البريطانية الأسبوعية غلافها بصورة تظهر الوضع المهين للمعتقلين فى القاعدة والقيود التى يرسفون بها والكمامات التى تعطل حواسهم، وكتبت فى عنوانها الرئيسى : « **إنهم لا يسمعون شيئًا ولا يرون شيئًا ولا يشعرون بشى، أيديهم وأرجلهم ترسف بالقيود، إنهم يركعون مذعورين . . أبهذه الطريقة يدافع بوش وبلير عن حضارتنا ! !» .**

ما أشبه اليوم بالأمس، فما يفعله الأمريكى «المتحضر» بأسرى أفغانستان فى القرن الواحد والعشرين، هو نفس ما فعله الأمريكى الأبيض بالإفريقى الأسير المختطف فى القرن الثامن عشر . لا اختلاف بينهما سوى أن الأمريكى اليوم يصف نفسه بالمتحضر وأمريكى الأمس كان يجهر بأنه مستعمر .

وهكذا تبقى صحيحة إلى اليوم محاضرة «وليام لنش» أو رسالته إلى أبناء جلدته، وأن كلماته هذه ونصائحه يتعين أن تنشر وتطرح على الملأ لعلها تحدث غضبًا لدى الرأى العام العالمى .

وقف «وليام لنش» بين أبناء جلدته يقول : أيها السادة، إننى أحييكم هنا على شواطئ نهر جيمس فى ١٧١٢م . أولاً أشكركم أيها السادة فى مستعمرة فرچينيا لدعوتكم لى هنا .

إننى هنا لأساعدكم على حل بعض مشاكلكم مع عبيدكم . إن دعوتكم وصلتنى فى مزرعتى المتواضعة فى جزر الهند الغربية، حيث جربت عددًا من الوسائل الحديثة والوسائل القديمة للسيطرة على العبيد، وإن روما القديمة يمكن أن تحسدنا إذا طُبق برنامجى .

عندما كان قاربنا يبحر جنوبًا فى نهر جيمس، رأيت ما يكفى لمعرفة أن مشكلتكم ليست فريدة، وفى حين كانت روما القديمة تستخدم الخشب كصلبان لوضع

الأجسام البشرية على طول الطرق الرئيسية فأنتم هنا تستخدمون الشجر والحبال لهذا الأمر، وقد لمحت عبداً ميتاً معلقاً على شجرة على بعد ميلين، وأنتم بهذه الطريقة لا تفتقدون فقط هذه الثروة التى تعلقونها ،ولكنكم أيضًا تعانون من الانتفاضات ومن هروب العبيد بعيداً، ومن أن محاصيلكم تبقى فى الحقول بغير جنى أكثر مما يستوجب الحصول على الربح الأكبر، كما أنكم تعانون من حوادث الحريق التى تحدث من قتل حيواناتكم.

أيها السادة، إنكم تعرفون ما هى مشاكلكم ولست فى حاجة إلى شرحها لكم ولست هنا ألقى الضوء عليها ،إنما أتيت لأقدم لكم وسيلة لحل هذه المشاكل. فى حقيبتى هذه وسيلة مجربة يمكنكم بها السيطرة على عبيدكم السود، وإنى أضمن لكل واحد منكم إذا استخدمها بطريقة صائبة فستمكنه من السيطرة على العبيد لمدة لا تقل عن ٣٠٠ سنة، وطريقتى بسيطة وأى واحد من أسركم وكل من يشاهدها يمكنه أن يستعملها.

إننى أبحث عن عدد من الاختلافات بين العبيد وآخذ هذه الخلافات وأعمل على تضخيمها، أستخدم وأستعمل الخوف وعدم الثقة والحسد لأغراض السيطرة، وهذه الوسائل نجحت فى مزرعتى المتواضعة فى جزر الهند وستعمل أيضًا فى كل الجنوب.

أيها السيد.. خذ هذه القائمة الصغيرة البسيطة من الاختلافات وفكِّر فيها، فى قمة قائمتى ستجد اختلاف السن واللون وهناك أيضًا الذكاء والحجم والجنس ومساحة المزارع وحالة المزرعة ووضع الملاك، وحيثما يكون العبيد يحيون فى الوادى أو على التل فى الشرق أو الغرب فى الشمال أو الجنوب أو يكون شعرهم خشنًا أو ناعمًا أو يكونون طوالاً أو قصاراً.

الآن إن لديك قائمة بالاختلافات وأعطيك طريقة للعمل، ولكن قبل ذلك أؤكد لك أن زرع الشك وفقدان الثقة هو أقوى من الثقة، وأن الحقد أقوى من التملق أو الاحترام أو الإعجاب، وأن العبد الأسود بعد أن يتشرب هذه المشاعر فسيحملها وسيغذيها تغذية ذاتية وسيولدها فى نفسه لمئات من السنين أو من الآلاف منها.

لا تنسَ أن تضع الرجل الأسود العجوز ضد الرجل الأسود الشاب، والرجل الأسود الشاب ضد الرجل العجوز الأسود.

يتعين أن تستخدم العبيد ذوى البشرة الداكنة ضد العبيد ذوى البشرة الأقل سوادًا، وذوى البشرة الأقل سوادًا ضد العبيد ذوى البشرة الداكنة.

يتعين أن تستخدم الرجال ضد النساء والنساء ضد الرجال، ويتعين أيضًا أن تجعل الخدم البيض فاقدى الثقة تمامًا بكل السود، ومن الضرورى أن تجعل عبيدك واثقين بنا ومعتمدين علينا ويجب أن يحبونا ويحترمونا ويثقوا بنا نحن فقط.

أيها السادة، هذه الأساليب هى مفتاحكم للسيطرة فاستخدموها، واجعلوا زوجاتكم وأطفالكم يستخدمونها ولا يتركون أية فرصة تفلت منهم.

إذا استخدمت هذه الوسيلة بكثافة لسنة واحدة فسيبقى العبيد دائمًا فاقدى الثقة، وإليكم التفاصيل:

وخشية من أن أجيالنا فى المستقبل قد لا يتفهمون مبادئ الترويض لكل من الخيل والبشر فإننا نضع أمامهم هذا الفن، وإذا كنا نريد أن ندعم اقتصادنا الأساسى فيجب أن تربط الوحوش بعضها ببعض.

نحن نفهم الخطط قصيرة المدى والنتائج الاقتصادية فى الاضطرابات الاقتصادية الدولية، ولكى نتفادى الاضطراب الاقتصادى يتعين أن يكون لدينا مدى طويل وعميق لاستخدام المهارة والحزم.

ونحن نضع المبادئ الآتية من أجل التخطيط الاقتصادى المعقول والطويل المدى:

١- إن الحصان والزنجى كليهما لا يفيدان الاقتصاد فى الحالة الطبيعية والبدائية.

٢- كليهما يتعين أن يُروض ويُربط بعضهما ببعض للإنتاج المنظم.

٣- ومن أجل المستقبل المنظم فإن الاهتمام يجب أن يُبذل بشكل خاص بالنسبة للنساء والذرية أو الناشئة.

٤- وكليهما يجب أن يدجن لينتج تقسيمًا متنوعًا للعمل.

٥- وكليهما يتعين أن يعلم أن يستجيب إلى لغة جديدة خاصة.

٦- وإن تعليمات نفسية وجسمانية للإحاطة بهما يجب أن توجد.

obeikandl.com

وبكلمات أخرى يتعين كسر إرادة المقاومة، إن عملية الترويض تصبح الآن هى ذاتها لكل من الحصان والزنجى. والاختلاف هو خلاف قليل فى الدرجة فقط، ولكن كما ذكرنا من قبل هناك فن التخطيط الاقتصادى طويل المدى. كذلك يتعين أن تبقى عينك وأفكارك على الإناث وعلى الناشئة[1] أو الذرية من الخيل والزنوج.

إن برنامجًا مختصرًا لتطوير الناشئة سيلقى الضوء على هذا الأمر، اهتم قليلاً بالجيل الأول الذى انفصل وركِّز على أجيال المستقبل. ومن ثَمَّ إذا تعاملت مع الأم الأنثى فإنها ستروض أبناءها فى السنين الأولى لتطورهم، وعندما ينمو الناشئة فستسلمهم لك؛ لأن ميولها الأنثوية العادية فى حماية النفس ستكون قد فقدتها فى عملية الترويض الأولى التى جرت معها.

وعلى سبيل المثال ففى حالة التعامل مع قطيع من الخيل الوحشية والفرس الأنثى والحصان الصغير، وقارن عملية الترويض مع اثنين من الذكور الزنوج فى حالتهم الطبيعية أو مع الزنجية الحامل مع وليدها.

خذ الحصان وروضه للتعامل المحدود، روض تمامًا الفرس الأنثى حتى تصير مهذبة جدّا يمكن لك أو أى شخص آخر أن يركبها براحة تامة، واستولد الفرس حتى تحصل على الوليد المطلوب، ثم أطلق الفرس بحريتها ودرِّبها أن تأكل طعامها من يدك ستجد أنها ستدرب أولادها لكى يأكلوا من يدك أيضًا.

وعندما تروض الزنجى غير المتمدين فاستخدم العملية ذاتها، ولكن بدرجة مختلفة لكى تحصل على نتائج متباينة. استخدم أكثر الزنوج عنادًا واخلع عنه ملابسه أمام الزنوج الذكور الآخرين وأمام النساء وأمام الأطفال وَاطْله بالقار، وضع عليه الريش، واربط كل ساق له بحصان يتجه عكس الحصان الآخر، ثم اضرب الحصانين لينشطر أمام جميع الزنوج الموجودين. والخطوة الثانية أن تمسك بسوط وتضرب الزنوج الباقين إلى حد الموت أمام النساء والأطفال، لا تقتلهم ولكن اجعلهم يخافون؛ لأنهم يمكن أن يكونوا مفيدين فى استولاد الأطفال بعد ذلك.

---

(١) دائمًا يستخدم «وليام لنس» لفظ off Spring بمعنى نتاج أو مستولد ولا يستخدم قط لفظ ابن أو بنت Daughter - Son.

ثم خذ الأنثى وأجر عدداً من الاختبارات عليها لترى ما إذا كانت إرادتها قد خضعت لرغباتك طواعَية، اختبرها بكل طريقة؛ لأنها هى أكثر العناصر أهمية من أجل الاقتصاديات الجيدة.

إذا وجدت منها أية إشارة لمقاومة الخضوع الكامل لإرادتك فلا تتردد فى استخدام السوط لتضربها إلى أقصى مدى. وخذ حذرك بألا تقتلها؛ لأنك لو فعلت فستفسد الاقتصاديات الجيدة، وعندما يتم الخضوع الكامل فإنها ستدرب ذريتها فى السنين الأولى لهم على الخضوع للعمل عندما يأتى سن العمل.

إن الفهم هو أطيب شىء، ومن ثَمَّ فنحن سنذهب بعيداً لهذه المسألة المتعلقة بما ذكرناه هنا بعملية الترويض للزنجيَة.

نحن عكسنا العلاقات، وهى فى حالتها الطبيعية غير المتحضرة تكون لديها تبعية قوية للذكر (الرجل) الزنجى غير المتحضر، ويكون لديها اتجاه للمناعة المحدودة بالنسبة لاستقلال أبنائها الذكور وستجعل أبناءها الإناث تابعين مثلها.

ومن الطبيعى بالنسبة لهذا النوع من التوازن فنحن نعكس الطبيعة عندما نتعامل مع الزنجى بضربه بالسوط إلى لحظة الموت وأن يكون ذلك أمامها وبحضورها، وعندما نتركها وحدها بغير حماية وبعد أن تحطم صورة الذكر، فإن المحنة ستنقلها من حالة التبعية السيكولوچية إلى حالة من التجمد والاستقلال والتبلد.

وفى هذه الحالة من الجمود النفسى فإنها ستعكس الأدوار الخاصة بالنسبة للذكور والإناث لنسلها، فهى خوفًا على حياة ابنها الذكر ستدربه نفسيا على أن يكون ضعيفًا من الناحية المعنوية وتابعا ولكن قوى من الناحية الجسمانية.

ولأنها قد صارت مستقلة نفسيّا فإنها ستدرب ابنتها الأنثى لكى تكون مستقلة نفسيّا، ما الذى ستحصل عليه من ذلك؟ ستحصل على امرأة زنجية فى المقدمة وعلى رجل يتوارى بعيدا، وهذه الحالة ممتازة من الناحية الاقتصادية.

وقبل عملية الترويض يجب أن تكون متيقظًا فى كل الأوقات، أما الآن فيمكنك أن تنام مطمئنّا؛ لأنه ينتج من الخوف أن تصير المرأة حارسة لنا، أما الذكر فيصير أداة طيعة مستعدّا أن يُربط مع الحصان فى سن البلوغ.

وعندما يبلغ الزنجى سن ١٦ سنة فإنه سيكون مستعداّ لحياة طويلة من العمل الفعّال ولإعادة إنتاج قوة العمل الجيدة.

ومن خلال الترويض للزنوج المتوحشين غير المتحضرين، وبجعل الزنجية المتوحشة فى حالة من الاستقلال المتبلد بنفى تصور أن الذكر يقوم بحمايتها وبمحو عملية التبعية من الخضوع للذكر المتوحش الزنجى، نكون قد خلقنا دورة تفيدنا إلى الأبد إلا إذا حدث تحول آخر.

إن خبراءنا يحذروننا من إمكانية حدوث هذا التحول؛ لأنهم يقولون لنا: إن العقل لديه ثورة كبيرة على تصحيح نفسه بعد فترة من الوقت إذا لمس إمكانية لذلك.

وعملاً بهذه النصيحة فإن أحسن طريقة للتعاون مع هذه الظاهرة هى أن نمسح ونلغى التاريخ المعنوى، وأن نخلق لهم عدداً من الظواهر المتوهمة وكل وهم يأتى فعله بينهم.

اللغة المسيطرة

ومتى تم الترويض فمن أجل استبقاء أثره يتعين أن نمحو تماماً اللغة الأصلية لدى الزنجى الجديد، وأن ننشئ لغة جديدة تسهل حياته العملية. وأنتم تعلمون أن للغة تكوينها الخاص وأنها تصل إلى قلوب شعبها، وبقدر ما يعرف الأجنبى لغة غيره من الشعوب بقدر ما يستطيع أن يتحرك وينتقل من خلال كل مستويات هذا المجتمع، ومن ثَمّ إذا كان الأجنبى عدواّ لبلد آخر إلى درجة أنه يعرف تكوين لغته إلى هذا المَدَى، يكون الوطن قابلاً للغزو من الثقافة الأجنبية، وعلى سبيل المثال فلتأخذ العبد إذا أنت علمته كل ما يتعلق بلغتك فسيعرف كل أسرارك وسيعرف أكثر مما يجوز باعتباره عبداً لن تستطيع أن تستغله بعد ذلك، وإن جعله مغفلاً هو إحدى الصفات الرئيسية لاستبقاء النظام العبودى.

وعلى سبيل المثال أيضاً فإذا قلت للعبد: إنه يجب أن يحسن حصد حاصلاتنا، إذا كان هو يعرف اللغة جيداً فسيعرف أن لفظ حاصلاتنا لا تعنى إلا أنها حاصلات لنا وسينهار النظام العبودى؛ لأنه سيتعامل مع المعنى الحقيقى لكلمة حاصلاتنا.

ومن ثَمّ فعلينا أن نكون حذرين فى استخدام اللغة الجديدة؛ لأن العبد سيوجد فى منزَلك وسيتحدث إليك حديث رجل لرجل، وسيكون هذا هو الموت بالنسبة لنظامنا الاقتصادى.

وبالإضافة إلى ذلك فإن تعريف الكلمات والعبارات هو جزء صغير من العملية. إن القيم تخلق وتنتقل بوسائل اتصال من خلال هيكل اللغة، وأن المجتمع كله لديه نظام من القيم المتداخلة، وكل هذه القيم فى المجتمع تنتقل عبر اللغة وتترابط لتعمل بانتظام فى المجتمع.

ولكن من أجل هذه الجسور اللغوية فإن هذه النظم القيمية ستتصادم بعنف وتوجد صراعًا داخليّا أو حربًا أهلية. إن درجة الصراع تتحدد بمدى ضخامة الموضوعات ومدى قوة المعارضة، فمثلاً إذا وضعت عبدًا فى مكان قذر (حظيرة خنازير) ودربته على أن يحيا ويقيم فيه باعتباره وسيلة كاملة للحياة، فلن يجادلك بعد ذلك فى كيف يكون هذا المكان نظيفًا ولن تخشى منه شيئًا.

ومن ناحية أخرى إذا وضعت هذا العبد فى نفس المكان القذر (حظيرة الخنازير)، وجعلت له من لغته ما يشعر به أن هذا المكان أو أن المنزل يمكن أن يكون أحسن من حظيرة الخنازير، يمكن أن ننشئ مشكلة وستجده بعد ذلك فى منزلك أنت.

❋ ❋ ❋

والآن أليس رسالة «وليام لنش» ونصائحه الخاصة بترويض العبيد لا تختلف كثيراً عما يحدث الآن لترويض الشعوب؟!

سفاح الكونغو

منذ تسعين سنة قام وكلاء الملك «ليوبولد الثانى» ملك بلچيكا بمذابح قتل فيها عشرة ملايين إفريقى فى الكونغو، وكان الشنق على الأشجار وقطع الأيدى جزءًا من سياسة «ليوبولد» الاستعمارية. واليوم فإن إرهاب «ليوبولد» قد خُبئ تحت البساط، ويسميه «آدم هوتشيلد- Hochschild» النسيان الكبير فى كتابه اللامع «شبح الملك ليوبولد» الذى يحكى فيه قصة الاستغلال والقسوة والعنت التى يجب ألا تنساها إفريقيا ولا ينساها العالم.

إن «ليوبولد» لم يضع قدمه قط فى دولة الكونغو، ومع ذلك حكمها ثلاثًا وعشرين سنة من ١٨٨٥ حتى ١٩٠٨م، وحسبما يقول «هوتشيلد»: إنها كانت المستعمرة الوحيدة فى العالم التى يدعيها رجل واحد لنفسه.

كانت الكونغو أرضًا واسعة جدًا، إذا قورنت بمساحة أوروپا فإنها تشغل المنطقة الممتدة من زيورخ إلى موسكو إلى وسط تركيا، وهى أكبر من انجلترا وفرنسا وألمانيا وإسپانيا وإيطاليا مجتمعة. وأغلبها أرض برارى وساڤانا، وتتضمن هضابًا بركانية وجبالاً يغطيها الجليد، وبعض قممها تعلو على جبال الألب.

لقد أثار إرهاب المطاط لليوبولد كثيرًا من النقد فى بريطانيا وأمريكا والقارة الأوروپية خاصة بين عامى ١٩٠٠و ١٩٠٨م، ولكنهم حين كانوا يدينون بربرية ليوبولد كانوا هم يرتكبون كوارث وفظاعات ضد الإفريقيين تشابه ما يفعله.

يقول المؤلف هوتشيلد فى الحقيقة فإنه مع خسائر بشرية تقدر بعشرة ملايين شخص فإن ما حدث فى الكونغو يمكن أن يقال إنه من أكبر الجرائم التى ارتكبها الأوروپيون فى إفريقيا.

وخلال عقد من عهد ليوبولد فإن نظامًا للسخرة وُضع لاستخراج المطاط ليس فى الكونغو فحسب، بل فى الممتلكات الفرنسية غرب وشمال نهر الكونغو، وفى أنجولا التى يحكمها البرتغاليون، وفى الكاميرون التى يحكمها الألمان، وفى الأراضى الاستوائية الإفريقية التابعة لفرنسا، ولكن كل هذه الأراضى المشغولة بالمطاط كانت أقل كثيراً مما يسيطر عليه ليوبولد ولكن كانت القسوة هى نفسها.

إن العمل بالسخرة وسلاسل العبودية والجوع وحرق القرى كان ذلك كله من النظام السائد، وكان هناك نوع من الكرابيج يُصنع خصيصًا من جلد الخراتيت بعد أن تجفف وتقطع بطريقة تجعل أطرافها حادة وجارحة، وكانت تترك آثاراً دامية على الأجسام، وإن عشرين جلدة منها كانت تنقل المجلود إلى عالم اللاوعى، ومائة جلدة كانت قاتلة. وكان هذا النوع من الكرابيج يستخدم بحرية بواسطة رجال ليوبولد والفرنسيين، حتى إن آلافًا من اللاجئين الذين عبروا نهر الكونغو هروبًا من ليوبولد عادوا من جديد إلى بلادهم هروبًا من قسوة الفرنسيين فى الكونغو برازفيل. وتقدر الخسائر البشرية فى المناطق الاستوائية الغنية بالمطاط المملوكة لفرنسا بنحو ٥٠٪ مثل الخسائر ذاتها فى الكونغو المملوكة لليوبولد.

إن المؤلف هوتشيلد لم يستطع أن يقيس كيف أن حركة الإصلاح فى أوروبا ركزت أساسًا على كونغو ليوبولد وحدها، فى حين أننا إذا نظرنا إلى المجازر البشرية والنسبة المئوية لمن قتل من البشر، نجد أن الألمان صنعوا نفس الشىء فى ناميبيا إن لم يكن أسوأ مما صنعه ليوبولد فى الكونغو.

ويذكر المؤلف أنه بهذه المستويات فإن المقياس يكون أسوأ بالنسبة لقبائل الهيريرو فى جنوب غرب إفريقيا المعروفة الآن باسم ناميبيا. إن القتلى هناك لم تكن جرائم قتلهم تتخفى وراء شعارات الإنسانية أو ما يشابه، لقد كان قتلاً جماعيّا بسيطًا وصريحًا. وعندما فقد الهيريرو الكثير من أراضيهم واغتصبها الألمان، قاموا بانتفاضة ١٩٠٤م، وردّا على ذلك أرسل الألمان قوات عسكرية ثقيلة تحت قيادة الچنرال لوثر ڤون تروثا الذى أصدر أمرًا لقواته نصه الآتى:

«**فى أى مكان داخل الحدود «الألمانية!» فإن كل هيريرو يوجد سواء كان يحمل سلاحًا أو لا يحمل وسواء كان لديه ماشية أو ليست لدية ماشية، يجب أن يقتل ولا يجوز اعتقال أى رجل، يجب فقط أن يُقتل**»، وعندما أنهى هذا القائد مهمته

obeikandi.com

١٩٠٧م كان الهيريرو البالغون ٨٠ ألفًا فى عام ١٩٠٣م فقط ١٥ ألفًا، والآخرون قتلوا أو اقتيدوا إلى الصحارى ليموتوا من العطش، بعد أن سمّم رجال القائد الآبار هناك، والبعض الآخر أطلق عليه الرصاص. وكان تسميم الآبار وترك الناس يموتون من العطش فى الصحراء فكرة أملتها عليهم رغبتهم فى توفير الذخيرة وطلقات الرصاص.

وقد حاول المؤلف أن يكون منصفًا بالإشارة إلى ما كان يصنعه الأمريكيون والإنجليز فى أماكن أخرى، فقال: «**فى الوقت الذى كان الألمان فيه يذبحون الهيريرو، كان العالم يجهل القسوة البالغة التى واجه بها الأمريكيون حروب العصابات فى الفيليپين، وكانت قوات الولايات المتحدة تقتل المساجين وتحرق القرى، وتقتل عشرين ألفًا من الثوريين، وتترك مائتى ألف فيليپينى يموتون من الجوع أو المرض.**

والبريطانيون كذلك لم يكونوا يخضعون لنقد عالمى عندما قتلوا السكان الأصليين فى استراليا، ولم يكن هناك احتجاج فى أمريكا أو فى الولايات المتحدة ضد التمييز العنصرى الذى يمارس فى أمريكا ضد الهنود الحمر».

لقد وضع المؤلف سؤالاً مهمّا وهو عندما تمضى هذه المجازر الجماعية بغير انتباه لها إلا من ضحاياها؛ فلماذا كانت انجلترا والولايات المتحدة تثيران عاصفة من النقد والاحتجاج حول ما يحدث فى الكونغو؟ ويجيب على السؤال قائلاً: إن ما حدث فى الكونغو كان قتلاً جماعيّا على نطاق واسع. ولكن الحقيقة أن مَن قاموا بعمليات القتل هذه لصالح ليوبولد لم يكونوا قتلة أكثر من الأوروبيين الذين يعملون فى إفريقيا أو فى كل الحروب، كما ذكر الكاتب «كونراد» فى كتابه «قلب الظلام» أن كل أوروبا ساهمت فى فعل «كورتز ـ Kurtz»، فمن كورتز؟

إن كورتز هو الشخصية الرئيسية فى قصة «قلب الظلام» لجوزيف كونراد، كان كورتز مبعوث العلم والتقدم ومثقفًا وجامع رءوس القتلى ورسامًا وشاعرًا وصحفيّا ومؤلفًا لتقرير الجمعية الدولية لقمع العادات الوحشية، وهو من أباد الإفريقيين بحجة أنهم متخلفون.

ويعتقد هوتشيلد أن كورتز هو الشخصية الحقيقية لـ «ليون روم»، وروم هذا ولد

فى بلچيكا وتعلم تعليماً ضعيفاً وانضم للجيش البلچيكى فى سن السادسة عشرة، وبعد تسع سنوات فى سن الخامسة والعشرين من عمره عام ١٨٨٦م ، وجد نفسه فى الكونغو يبحث عن مغامرة. صار مأموراً لأحد الأقاليم فى متادى بالكونغو، وبعد ذلك صار ضمن القوات الإفريقية فى جيش ليوبولد المسمى «القوة العامة فى الكونغو».

إن قسوة روم بلغت حد أن كان الرجال البيض أنفسهم يُصدمون من أفعاله. ويذكر هوتشيلد أنه عندما كان روم رئيساً لأحد المواقع فى مساقط ستانلى، أرسل الحاكم العام تقريراً إلى بروكسل عن بعض العملاء، الذين صارت لهم سمعة فى القتل الجماعى للجماهير لأهون الأسباب، وأشار فى ذلك إلى روم الذى كان يضع مشنقة بشكل دائم أمام الموقع الذى يرأسه.

إن كونراد نفسه سبق أن ذهب إلى الكونغو ١٨٩٠م فى الوقت الذى كان روم يرتكب فظائعه، ويكتب هوتشيلد أن المجال الأخلاقى لقصة «قلب الظلام» والظلال الخاصة بالشخصية الرئيسية لم تكن خاصة بالروائى بقدر ما كانت خاصة بالمراقب المفتوح العينين الذى يكشف روح الوقت وروح المكان بصدق كبير.

* * *

كيف أمكن لليوبولد أن يمتلك هذه الأراضى الشاسعة ويستغلها ويقتل شعبها ويستغل ثرواته دون أن تطأها قدمه؟

هناك ثلاثة أشياء يمكن أن تستخرج من هذه القصة الحزينة:

أولها: سذاجة الإفريقيين ملوكاً وشعوباً.

وثانيها: عدم كفاءة الأوروپيين الذين ذهبوا إلى إفريقيا.

وثالثها: التفوق فى العتاد الحربى والسلاح الذى كان يحوزه الأوروپيون ويفتقده الإفريقيون.

عندما بلغ الأوروپيون الأوّل الكونغو فى عام ١٤٨٢م وكانوا من البرتغال، واجهوا مملكة إفريقية قوية عفية، ويذكر هوتشيلد أنه رغم الازدراء الذى كان يشعر به البرتغاليون تجاه ثقافة الكونغو فإنهم ما لبثوا أن اعترفوا بالنظام والتقدم الذى تنبى

عليه المملكة هناك، وهى المملكة التى كانت تتولى القيادة فى الساحل الغربى لإفريقيا الوسطى. كانت إمبراطورية كبيرة مترامية الاتساع تتكون من مليونين أو ثلاثة ملايين من السكان، وجزء منها يقع الآن فى عدد من الأقطار الأخرى بعد أن تحكم الأوروپيون فى رسم الحدود فى إفريقيا ١٨٨٥م.

إن أهم ما يميز الكونغو هو النهر العظيم الذى يبلغ طوله ثلاثة آلاف ميل ، وله عدد من الأسماء مثل ليولابا وانزاوى وانزيرى، وهى الأسماء التى يطلقها عليه السكان الذين يعيشون حوله. وانزيرى تعنى النهر الذى يبتلع كل الأنهار؛ وذلك بسبب أنه يجمع الروافد الكثيرة، وأحد هذه الروافد هو رافد كاساى الذى يحمل من المياه قدر ما يحمله أطول نهر فى أوروپا وهو نهر الفولجا أو قدر نصف ما يحمله الراين. وله روافد أخرى هى الأوبانجى وهو أطول منه وإن كان أقل منه مياهًا، وطبقًا للنطق البرتغالى فإن انزيرى صارت زائير وهو الاسم الذى أطلقه موبوتو عندما أعاد تسمية البلاد ١٩٧١م، وكما صنع الأوروپيون فى كثير من بلدان إفريقيا فقد غيّروا اسم النهر إلى الكونغو. فى سنة ١٤٨٢م عندما وصل البحار البرتغالى «دياجو» إلى هذا النهر وشاهد مصبه على الأطلنطى اندهش من حجمه. ويذكر هوتشيلد أن علماء جغرافيا البحار المحدثين اكتشفوا دلائل حول قوة النهر العظيم فى انحداره إلى المحيط مائة ميل بعمق ٤ آلاف قدم والنهر ينحنى انحناءة كبيرة، ويصب فى المحيط ١,٤ مليون قدم مكعب من الماء فى الثانية الواحدة، وهذه كمية من الماء لا يوجد مثيل لها إلا فى الأمازون.

وبفضل التكنولوچيا الفضائية أمكن الآن معرفة الكثير عن حوض النهر الذى يرتفع إلى نحو ألف قدم بارتفاع ٢٢٠ ميلاً من شاطئ الأطلنطى. ومن ثَمَّ فإن النهر يهبط إلى البحر نحو ٢٢٠ ميلاً.

ويذكر هوتشيلد أنه خلال هذا الهبوط الكبير فإن النهر يجرى فى قنوات ضيقة، ويثور فى أمواج يصل ارتفاعها إلى ٤٠ قدمًا، كما يوجد فيه ٣٢ جندلاً منفصلة كل منها عن الآخر، ومن ثم فإن الانحدار يكون شديداً وحجم المياه لها قدرة هيدروكهربائية تماثل كل ما يوجد فى الولايات المتحدة من بحيرات وأنهار مجتمعة تقدر بسدس الإمكانيات الهيدروكهربائية فى العالم. ونهر الكونغو هو ثانى أطول نهر فى إفريقيا، يسير فى نحو ١,٣ مليون ميل مربع، وهى مساحة تزيد عن الهند.

ومن ثم فإن الكونغو كانت الجوهرة التى من أجلها يمارس الاستعمار القتل، وقد كان هذا الأمر من نصيب «هنرى مورتون ستانلى» الذى استعمرها من أجل الملك ليوبولد الثانى.

كان ستانلى من ويلز بانجلترا ولكنه ظهر بوصفه أمريكيّا، وقد اهتم بالنهر فى جولته الثانية فى إفريقيا وتصور ستانلى أنه النيل.

إن خلفية ستانلى تذكر الكثير عن القسوة التى مارسها على الإفريقيين الذين قابلهم فى رحلاته. ولد فى مدينة تجارية صغيرة فى ويلز ١٨٤١م وسجلته أمه فى كنيسة سانت هيلارى باسم چون رولانز باسترد، ويقال: إن أباه كان سكّيرًا يسمى چون رولانز يعانى من مرض نفسى يصيب بعض مدمنى الخمور.

باسترد أو هنرى ستانلى

كان چون رولانز باسترد الابن الأول لخمسة أطفال غير شرعيين أنجبتهم أمه، وبعد أن أمضى طفولة بالغة القسوة إلى حد غير عادى فى إصلاحيات الأحداث، فإن چون رولانز باسترد ذهب إلى نيوأورليانز فى الولايات المتحدة الأمريكية فى عام ١٨٥٩م، حيث غيّر اسمه عدة مرات فسمى نفسه مورلى ومورليك ومورلاند، وفى النهاية استقر على اسم هنرى مورتون ستانلى، مدعيّا أن هذا كان اسم المحسن الغنى الذى كفله فى نيوأورليانز.

صار ستانلى جنديّا وبحارًا وصحفيّا ومكتشفًا مشهورًا، ثم بعد ذلك انتُخِب فى البرلمان.

عندما تولى ليوبولد الملك ١٨٦٥م فى بلچيكا كانت رغبته التى لم تخمد أن يحصل على مستعمرة، حتى إنه عرض أن يشترى الفيليپين من إسپانيا وأن يشترى بحيرة من بحيرات النيل، كما حاول أن يستأجر أراضى من جزيرة فرموزا.

وبالرغم من حجم دولته (بلچيكا) الضئيل فهى بلد صغير وشعب صغير حسبما وصفها هو، وصارت مستقلة ١٨٣٠م، فإن الحملات الشرسة التى خاضها ستانلى فى إفريقيا أتاحت فى النهاية لليوبولد فرصة أن يسيطر على هذه الجوهرة «الكونغو».

قام ستانلى بجولتين صحفيتين فى إفريقيا **الأولى** عام ١٨٦٩ م حيث وجد الرحالة ديفيد ليفنجستون ، **والثانية** عام ١٨٧٤ م بدأها من زنجبار ومعه ٣٥٦ رجلاً أغلبهم من الأفارقة وهاجم ودمر ٢٨ مدينة كبيرة وثلاث أو أربع مجموعات من القرى ، وكان ينهب ويدمر كل ما يعترض طريقه إلى ثغر نهر الكونغو على شاطئ الأطلنطى .

وفى عام ١٨٧٩م عاد ستانلى إلى إفريقيا ، وكان فى هذه المرة مبعوثًا من الملك ليوبولد ؛ لكى يستعمر له الكونغو ، واستخدم ستانلى فى هذه المهمة البندقية والسلع الأوروبية الرخيصة والغش الصريح ؛ ليكسب ٤٥٠ من الرؤساء المحليين ويسيطر على أرضهم وشعوبهم .

ويذكر ستانلى كيف أن جزيرة مانهاتن فى خليج نيويورك التى تبلغ مساحتها ١٢٢ ميلاً مربعًا قد اشتريت من الأهالى الأمريكيين بواسطة ضابط استعمارى هولندى هو «بيتر مينويد» مقابل سلع تافهة قيمتها ٢٤ دولارًا، فلماذا لا يفعل هو ذلك فى الكونغو أيضًا؟! . وقد كان كل ما فعله أنه طلب من الرؤساء الكونغوليين أن يوقعوا بعلامة إكس على المستندات القانونية المكتوبة بلغة أجنبية التى لم يروها من قبل ، وسمى ستانلى هذه الأوراق معاهدات مثل التى وقعت فى أول أبريل ١٨٨٤م بواسطة رؤساء انجومبى وماثيلا مقابل قطعة واحدة من الملابس تُعطى كل شهر إلى كلٍّ من الرؤساء الموقعين فضلاً عن هدية من الملابس ، وفى مقابل ذلك فإنهم وورثتهم من بعدهم وخلفاءهم إلى الأبد ، يعطون إلى الجمعية التى أسسها ليوبولد السيادة وكل حقوق السلطة والحكم على كل أراضيهم ويساعدون بالعمل وغيره وكافة الأعمال فى الحملات التى تقوم بها الجمعية فى أى وقت وعلى أى أراض ، وأن تكون كل الطرق والمجارى المائية التى تجرى فى هذه البلاد تشملها هذه الحقوق وكل مجالات النشاط والصيد واستغلال المناجم والغابات ، يكون كل ذلك ملكية مطلقة للجمعية .

بواسطة معاهدات من هذا النوع استعمر ستانلى الكونغو لصالح ليوبولد ، ولكن الفرنسيين لم يكونوا ليتركوه بكل هذه الغنيمة ، فأرسلوا الكونت «بيتر سافورنان دى برازا» فى بعثة استعمارية خاصة ، ونزل برازا فى إقليم شمال نهر الكونغو وأحاط بهذه المنطقة لصالح فرنسا ، وصار له مدينة باسمه برازافيل ، وصارت هذه

المنطقة تعرف باسم الكونغو برازافيل ، حيث قاد الفرنسيون عملياتهم الوحشية ضد الشعوب المحلية . وفى الوقت نفسه قام برازا بمجهود كبير من أجل ليوبولد فقد عبر النهر وأنشأ سكة حديد وشق طريقًا ترابيًّا (مدقّا) بطول ٢٢٠ ميلاً قرب النهر ؛ وذلك ليسهل شحن العاج الموجود فى الكونغو بوفرة وشحن غيره من الثروات إلى بلچيكا إغناءً لليوبولد ولدولته الصغيرة . وفى عام ١٨٨٤ م عاد ستانلى إلى بلده انجلترا بعد أن أنجز المهمة الخاصة بليوبولد . وأرسل ليوبولد بعد ذلك جماعاته بما فيهم ليون روم ؛ ليستخدم الإرهاب والرعب ليحكم هذه البلاد ويسيطر على ثرواتها . وكانت فظائع أجهزة ليوبولد هى التى نبهت أعين العالم ، والتى أجبرته على أن يبيع الكونغو للحكومة البلچيكية فى عام ١٩٠٨م .

كان العاج أهم ما كان يصدره ليوبولد من الكونغو ، ثم حدث بعد ذلك بالصدفة حادثًا غيّر مصير ليوبولد ومستعمرة الكونغو وشعبه ، كان «چون دَنلوب» فى أيرلندا يجرب دراجة مع ابنه واكتشف إلى أى مدى الإطار المصنوع من المطاط مناسبًا للسير ، فأسس شركة للإطارات ١٨٩٠م سميت باسمه دَنلوب ، ثم ظهرت هذه الصناعة الكبرى للإطارات من المطاط «إطارات دَنلوب» ، وصار المطاط هو الذهب الجديد ، وكان هذا ما أثلج صدر ليوبولد وفتح أبواب الثروة له من الكونغو الغنى بالمطاط .

إرهاب المطاط

ضغط ليوبولد على وكلائه للمزيد من استغلال المطاط الطبيعى فى الكونغو رغم وفرته ، ومارس من أجل ذلك مذابح القتل الجماعى ، كان استخراج المطاط الطبيعى عملية صعبة استخدم فيها وكلاء ليوبولد إجراءات قاسية ؛ ليجبروا الأهالى فى الكونغو على أن يذهبوا إلى الغابات ويجمعوا المطاط من أجل ليوبولد ، وكان أى رجل يقاوم هذا الأمر يرى بعينيه كيف تُختطف زوجته وتُقيد بالسلاسل ليضطر هو إلى الرضوخ والذهاب لجمع المطاط ، وأحيانًا كانت تُقتل زوجته انتقامًا منه .

وقد قاومت كثيرٌ من القرى نظام المطاط ؛ فكان وكلاء ليوبولد يأمرون جيش الطوارئ أن يغزو هذه القرى المتمردة ويقتل أهلها ، وحتى يتأكد الضباط من أن

الجنود لم يبددوا الرصاص فى اصطياد الحيوانات كانوا يطلبون من الجنود أن يبتروا اليد اليمنى لكل شخص يقتلونه. يقول هوتشيلد: إن الدليل النمطى كان اليد اليمنى لكل جثة، وأحياناً كانوا يحصلون على أيدى أناس لم يقتلوا عندما كانوا يوجهون الرصاص إلى اصطياد الحيوانات فكانوا يقطعون يد رجل حى ليقدموها، وفى بعض الوحدات العسكرية كان هناك أمين على مخزن الأيدى المقطوعة كانت وظيفته تبخيرها. وقد اكتشف هذا الأمر «أدمون دين موريل» وهو كاتب فى خطوط سفن ليفربول التى كان يستخدمها ليوبولد فى شحن ثروات الكونغو، اكتشف فى رحلاته المتعددة للموانى البلچيكية أنه فى حين كان المطاط والعاج يشحنان من الكونغو كان يشحن إلى الكونغو بدلاً منهما الجنود والبنادق. وكان هذا بداية حملته الصحفية التى كشفت فظائع ليوبولد فى الكونغو. أجبرت حملات موريل الصحفية فى أوروپا وأمريكا، بريطانيا فى النهاية على أن تطلب من قنصلها فى الكونغو سير «روجار كاسيمنت» وهو أيرلندى، أن يقوم بجولات تفتيشية فى طول الكونغو وعرضها ويكتب عما يحدث، وكان ما اكتشفه «كاسيمنت» من الفظاعة، بحيث إن وزارة الخارجية بلندن أحرجت، ولم تستطع أن تنشر أصل التقرير.

كان وصف «كاسيمنت» للأيدى المقطوعة ووسائل الجبر العنيفة أكثر مما توقعته الحكومة البريطانية، وعندما نشرت وزارة الخارجية البريطانية أجزاء من التقرير غضب «كاسيمنت» وأرسل خطاباً من ١٨ صفحة يحتج فيه على رؤسائه فى الوزارة ويهدد بالاستقالة؛ لأنهم لم ينشروا التقرير كاملاً.

وفى النهاية اضطرت الحكومة البلچيكية إلى أن تتخذ خطوة وتشترى الكونغو من ليوبولد، بدأت مفاوضات البيع فى ١٩٠٦م واستمرت عامين، وتمت عام ١٩٠٨م. وقبلت الحكومة البلچيكية قبل كل شىء أن تحوز الكونغو بمبلغ ١١٠ مليون فرنك، بعضها كان بسندات على الحكومة، ومنها ٣٢ مليون فرنك كان ديناً للحكومة على ليوبولد، سداداً لقروض سبق أن اقترضها من الحكومة. وقد وافقت الحكومة على أن تدفع ٤٥,٥ مليون فرنك؛ لتكمل مشروعات البناء التى بدأها ليوبولد ولم يكملها، وفوق كل ذلك حصل ليوبولد على ٥٠ مليون فرنك تدفع له أقساطًا كتعبير عن امتنان الحكومة له؛ بسبب تضحياته العظيمة من أجل الكونغو.

ويقول هوتشيلد: إن هذه المبالغ كلها لم يكن يتوقع أن تجبى من دافع الضرائب البلچيكى، إنما كان المتوقع والحاصل أن تستخرج من الكونغو نفسها.

وينهى هوتشيلد كتابه بملاحظة يسميها النسيان الكبير : «**فى المرحلة الاستعمارية فإن التراث الغالب الذى خلفته أوروپا لإفريقيا لم يكن الديموقراطية كما تطبقها اليوم بلدان مثل انجلترا وفرنسا وبلچيكا، إنما كان الحكم الاستبدادى والنهب. وفى كل القارة الإفريقية قد لا تكون هناك أمة مرت بظروف أصعب مما عانى منه الكونغو من انبعاثه من ظلال الماضى. . وعندما أتى الاستقلال عام ١٩٦٠م، عانى الكونغو كثيراً من نقص العناصر الإفريقية المدربة لهذا اليوم، ففى كل الكونغو كان هناك أقل من ٣٠ خريج جامعة من الإفريقيين، ولم يكن هناك ضباط جيش ولا مهندسون ولا زراعيون ولا أطباء من الكونغوليين. لقد صنعت الإدارة الاستعمارية القليل لكى يمكن للكونغو أن يحكم بواسطة شعبه، ومن بين خمسة آلاف وظيفة إدارية فى جهاز الإدارة لم يزد عدد الشاغلين لها من الإفريقيين عن ثلاثة**».

وفى يوم الاستقلال كان الملك بودوان ملك بلچيكا وقتها، كانت لديه الصفاقة بحيث يوجه حديثه لشعب الكونغو فى كنشاسا قائلاً: « **إن الأمر يرجع إليكم الآن أيها السادة لتظهروا أنكم تستحقون ثقتنا** ». إنه لا توجد وقاحة أكثر من هذا ويمكن تصور مدى الغيظ الذى شعر به الوطنيون المناضلون فى الكونغو وقتها مثل الزعيم «باتريس لومومبا».

إن كتاب هوتشيلد «شبح الملك ليوبولد» كتاب ممتاز وإفريقيا تدين لكاتبه بدين كبير من الامتنان، وهو جدير بأن يقرأ ويعمم فى مدارس إفريقيا وجامعاتها.

البرتغال مبتدعة الرق

أعتقد أن البرتغاليين أكثر الناس الذين يجب أن يدينوا بالاعتذار للشعب الإفريقى، وأن البرتغال يجب أن تقدم وأن تؤدى دينًا معنويّا لمواجهة الحقائق الخاصة بتاريخها، وتأسف عن الأذى الذى يشعر به ـ ولا يزال ـ مئات الملايين من الشعب الإفريقى الأسود.

ولتوضيح هذه الإدانة أقتطف نصّا برتغاليّا قديمًا يرجع إلى القرن الخامس عشر، كتب فى زمان أول شحنة للعبيد تُنقل من غرب إفريقيا إلى البرتغال، وهذا النص كتبه قسيس فرنسسكانى برتغالى هو «فرناندو دى أليفييرا» الذى كان زميلاً وصديقًا للقس «لاس كاساس» أكبر تجار العبيد.

كتب أليفييرا كتابه عام ١٥٥١م بعنوان: «فن الحرب فى البحر» وفيه تتبع كيف كانت تتم عملية جمع وترحيل العبيد الإفارقة عبر الأطلنطى، وأدان البرتغاليين باعتبارهم المبتدعين لتجارة الرق الإفريقى، يقول: «**إنه لا يمكن أن يكون ولا يقبل العقل البشرى بيع وشراء الرجال الأحرار المسالمين، كما يبيع ويشترى الإنسان الوحوشَ والماشيةَ وما شابهها، إنهم يُؤخذون ويُختارون ويُقيدون ويُقادون ويُصنع بهم ما يصنعه الجزار عندما يعرض الحيوانات، كم هى عملية غاشمة ومفسدة؛ فإذا اختطف أسود مسالم وفُصل عن أسرته وعن البيئة الاجتماعية المحيطة به وسيق إلى الساحل ونقل مقيدًا بالأغلال عبر الأطلنطى، فإنه ليس هو فقط من يعانى، بل إن أخلافه أيضًا سيكونون ضحايا سادتهم البيض**».

نحن نعرف ما فعله البريطانيون والفرنسيون والإسپان والهولنديون وغيرهم فى تجارة الرقيق لتعمير القارات الأمريكية، أكثر كثيرًا مما فعله البرتغاليون فى البرازيل

obeikandl.com

أو ما باعه البرتغاليون من العبيد فى الأسواق الأمريكية، ولكن إدانة البرتغاليين ترجع إلى أنهم أول مَن مارسوا هذه التجارة عبر طرق مباشرة تعبر جنوب الأطلنطى، وذلك بعد أن أقاموا علاقات مع الممالك الإفريقية القديمة ونجاحهم فى الكونغو، حيث بدأ التوسع فى تجارة الرق عبر البحار.

وقد اعترف اللورد بالمرستون فى البرلمان البريطانى وكان أكبر رؤساء وزراء بريطانيا فى بدايات القرن التاسع عشر، بأن البحرية البريطانية ما كانت تستطيع أن تقوم بنشاط فى المحيط الأطلنطى وكذلك سفن القوميات الأخرى، ما لم تستخدم العلم البرتغالى للتهرب من الوقوع تحت طائلة القوانين فى بلادهم. وإذا أخذنا فى الاعتبار أن تجارة الرق الإفريقية التى جرت عدة قرون قبل ظهور الطاقة البخارية، كانت هى مصدر الطاقة الذى يضاهى البترول فى هذه الأيام، ندرك إلى أى حد ساهم العبيد الأفارقة فى تنمية القارات الأمريكية، وإلى أى حد كانت جريمة البرتغال.

إن كتاب «أليفييرا» يُعَدّ مرجعًا أساسيّا فى تاريخ تجارة الرق، وقد كان لدى مؤلفه - على خلاف المعتقد السائد - حساسية خاصة تجاه ممارسة الرق، وأنه يكاد يعتذر مما يقع ويجرى من جراء هذه التجارة، ناهيك عن الممارسات والجرائم ضد الإنسانية التى ارتكبتها البرتغال والدول الاستعمارية الأخرى التى يرفض البعض حتى الآن الاعتراف بها ويودون حذفها من الماضى.. ولكن يبدو أن أوان الاعتذار قد فات من زمن بعيد، بعد أن أخفيت الحقائق الخاصة بالاستعمار وبالمشترين البيض والحاملين للرقيق والبائعين لهم.

* * *

كان البرتغاليون أول الأوروبيين الذين نزلوا بإفريقيا مع قيامهم بالحركة الكشفية فى القرن الرابع عشر، وكان غرضهم فى البداية يرمى إلى التجارة، وسرعان ما اكتشفوا تجارة الرقيق التى كان يفوق عائدها أية تجارة أخرى، فركزوا نشاطهم فيها، وكان الطلب على العبيد يتزايد؛ وذلك للعمل فى المناجم ومزارع جزر الهند الغربية وغيانا البرتغالية فى أمريكا.

ويعد الدور الذى قام به هؤلاء الرقيق فى خلق البرازيل عظيمًا بالرغم من

الظروف السيئة التى عاشوا فيها، هذا الدور أعظم بكثير من دور المستوطنين الأوروپيين، بل أعظم من دور البرتغاليين أنفسهم فقد كان الرقيق هم القوة التى اعتمد عليها فى المجتمع الزراعى فى البرازيل، كانوا وقود التنمية والإنتاج واستخدمت قوتهم العضلية فى تحريك الآلات والأدوات، كما استخدم الفحم بعد ذلك فى تحريك الآلة البخارية، وكما يُستخدم البترول الآن.

ويمكن القول: **إن تجارة الرق عبر الأطلنطى بدأها البرتغاليون فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وبعدها توالت الاكتشافات الأوروپية على طول الساحل الغربى الإفريقى. وكان سبب سيطرة البرتغاليين على هذه التجارة حادثًا صغيرًا يكاد لا يذكر فى كتب التاريخ. ففى عام ١٤١٥م غزا البرتغاليون مدينة سبته وهى ميناء صغير من موانى المغرب يقع فى الطرف الشمالى عند مضيق جبل طارق، وانتزعوه من المغاربة، وكان هذا الانتصار بداية أحلك الفصول سوادًا فى تاريخ القارة. ولا يزال ميناء سبته يقع تحت الاحتلال الإسپانى رغم الجهود الديپلوماسية المضنية التى تقوم بها المغرب لاسترجاع هذا الميناء المهم. وللأسف فإن المؤرخين والباحثين العرب لم يهتموا بهذا الحدث ونظروا إليه كشأن سقوط أية مدينة من البُلْدان العربية فى يد الغزاة الأوروپيين، فى حين أن سقوط هذا الميناء الصغير الذى لم يلتفت إليه هو الذى فتح الباب لغزو القارة الإفريقية.**

يقول «هيوتوماس» فى مؤلفه القيم «تجارة الرقيق» الذى نُشر عام ١٩٧٧م: «إن نقطة التحول فى الرحلات الأوروپية إلى غرب إفريقيا كانت فى عام ١٤١٥م، عندما قاد البرتغاليون حملة عسكرية للسيطرة على«سبته ـ Cepta» ، وكانت وقتها ميناءً تجاريًّا كبيرًا يقع على الشاطئ الجنوبى للبحر المتوسط، وكانت نقطة النهاية الشمالية لعدد من طرق القوافل الآتية من إفريقيا».

من وجهة النظر الأوروپية يذكر «هيوتوماس» أن أهالى جنوة كانوا يمارسون التجارة مع سبته من ٢٥٠ سنة، ويمكن أن يكونوا هم الذين اقترحوا على البرتغاليين غزو سبته، هذا بالإضافة إلى عدد من الدوافع الأخرى كانت لدى البرتغاليين وراء قرار الغزو، منها مثلاً الطموحات السياسية لأمراء البرتغال، والشعور الغلاب والمتنامى لديهم بالفروسية: «إن ملكى المستقبل دورتى وأخاه

هنرى الملاح (وهما نصف إنجليز) كانا مع أبيهما الملك «جوا الأول ـ Joao» قد اكتسبا فروسيتهما من السيطرة على ميناء سبته، وكانا قد سمعا عنها من التجار وقوافل الجمال التى كانت تحمل البضائع وأشياء أخرى إلى سبته ويتبادل بها بالذهب والعبيد القادمين من تمبكتو على النيچر وكنتور فى چامبيا، وهذه التجارة هى ما أوحت إلى هنرى الملاح أن يصل إلى هذه البلاد عن طريق البحر».

ومن وجهة النظر الإفريقية يشرح د. «چون هنرى كلارك» المؤرخ الأمريكى الإفريقى البارز والصحفى الذى اشتهر بأبحاثه الأصيلة فى المسائل التاريخية، فى محاضرة له فى لندن ١٩٨٨م: لماذا كان هذا النصر الصغير فى سبته مهمّا جدّا بالنسبة للأوروپيين؟ يقول: «فى ١٤٠٠م كانت أوروپا خارجة من أوضاع العصور الوسطى، وكان الإفريقيون والعرب والبربر (المراكشيون) يسيطرون على إسپانيا منذ ٧١١م حتى عام ١٤٠٠، كانت سيطرهم على إسپانيا تغلق أمام الأوروپيين إمكانات السيطرة على البحر الأبيض المتوسط، وكان هذا سبب الحروب التى دارت من أجل السيطرة على التجارة البحرية من البحر المتوسط وسمّيت بعدها بـ «حروب مصير البحر»؛ لأنها تتصل بالقارات الثلاث. كانت السيطرة والتزاحم ينصبان فى الحقيقة على شمال إفريقيا هذا الباب المفتوح إلى إفريقيا».

ويكمل د. كلارك: «وفى عام ١٤١٥م كان البرتغاليون وغيرهم من الأمم الأوروپية يعيشون فى خوف مما يسمى بالعرب، واستطاع البرتغاليون الذين كانوا يعيشون تحت سيطرة الإفريقيين والعرب أن يحرروا أنفسهم من هذه السيطرة، ساعدهم فى ذلك الخلاف الذى قام بين المجموعات العربية والإفريقية وهم «المورڤيد Almorevides»، و«أمهرست ـ Amharst»، وفى هذه السنة ١٤١٥م جاء الحدث الصغير الذى عرف على نطاق ضيق فى التاريخ وهو معركة سبته.

كان البرتغاليون سعداء لأنهم نجحوا فى الهجوم على هذا المنحنى من شاطئ مراكش (المغرب)، وهذا النصر الصغير أثار أوروپا واستحث لديها التفكير بأن العرب ليسوا بعيدين عن إمكانية أن يهزموا، وبدا هذا النصر الصغير فى شكله أنه نصر ضخم وساعد أوروپا على أن تسترد ثقتها. فقد كانت معنويات أوروپا هابطة جدّا، وعاشت مئات السنين فى خوف شديد من الإفريقيين العرب الذين كانوا يسدون الطريق أمام تحركات الأوروپيين فى البحر».

ويكمل د. كلارك «وبعد معركة سبته بدأ البرتغاليون يؤكدون أنفسهم ووجودهم، وهذا التأكيد أدى إلى إضعاف قبضة الإفريقيين والعرب على البحر المتوسط، ومع هذا الإضعاف فإن الخلاف بين العرب والإفريقيين أضعف سيطرتهم على إسپانيا؛ مما أدى إلى أن تتحرر إسپانيا من سيطرتهم». وكان هذا هو كرة الثلج التى أثرت على إفريقيا إلى الأبد.

وطبقًا لما يذكره المؤرخ وورتر دودنى: «كان المسلمون المغاربة الذين كان يطلق عليهم «المور - Moors» يقيمون المجتمع النشط القائم على أرض إفريقيا، وكانوا ذوى مستوى معيشى مرتفع، ومن المؤشرات الدالة على ذلك أن الحمامات العامة مثلاً كانت منتشرة وموجودة فى مدن المغرب، فى حين أنه فى ذلك الوقت كانت أكسفورد فى انجلترا تعتقد أن غسيل الجسم هو عمل خطير».

* * *

ذهبوا من أجل الذهب فاصطادوا العبيد

رغم أن البرتغاليين عملوا على السيطرة على سبته فقد فشلوا فى أن يسيطروا على تجارة الذهب الإفريقية ويغتصبوها من المغاربة، وأن فشلهم فى الحلول محل المغاربة دفعهم إلى تبنى استراتيچية بحرية، بهدف الحصول المباشر على طريق الذهب الإفريقى.

بدأت خطتهم بالالتفاف حول سواحل إفريقيا من الساحل الشمالى الغربى إلى الساحل الغربى، ووصلوا إلى رأس بوجادور ١٤٣٤ م، والرأس الأخضر ١٤٤٤م، وإلى سيراليون ١٤٦٠ م، وإلى ساحل الذهب ١٤٨٣ م، وإلى رأس الرجاء الصالح ١٤٨٨م.

وفى ٨ أغسطس ١٤٤٤ م وصلت أول شحنة من العبيد الأفارقة إلى البرتغال وكان عددهم ٢٣٥ عبداً. ويذكر هيوتوماس فى كتابه أن وصول هذا الحجم من الإفريقيين كان شيئًا جديداً، ذهب الكثيرون ليشاهدوه ومنهم الملك هنرى الذى أخذ يحدق فيهم من على ظهر حصانه، واستلم منهم هدية يبلغ مقدارها ٤٦ عبداً

وهو يمثل الخمس الملكى، وقد شعر بأنه أنقذ أرواح هؤلاء القوم من أجل الرب. . في حين كتب «جومز دى زورارا » وكان من حاشية الملك هنرى عندما رأى ذعر وبؤس هؤلاء العبيد: «أى قلب قاس لا يستطيع أن ينفعل ويشعر بالشفقة تجاه هؤلاء القوم عندما يصطادون وينفصل الآباء عن أبنائهم والأزواج عن زوجاتهم والإخوة عن إخوانهم، ونجد الألم فى العيون، والدموع تغسل الوجوه، والأكف تضرب الخدود، والصراخ ينبعث عاليًا، والأنظار تحدق بعيدًا كما لو كانت تطلب المعونة من إله الطبيعة».

* * *

الباعث الحقيقى

ولكن الباعث الحقيقى لاختطاف الأفارقة وجعلهم عبيدًا لم يكن التجارة فقط وإنما الانتقام أيضًا، كشف ذلك هيوتوماس بقوله: «إن أغلب المأسورين والذين كانوا محطّ الأنظار وقتها كانوا من «الأزاناغى ـ Azanagh» (ويعرفون الآن عادة باسمهم البربرى سانهاجا أو«إيدزاجن ـ Idzagen»)وهم سكان ما يعرف حاليًا بالجزء الشمالى من موريتانيا، وهم إحدى قبائل الطوارق المهمة، وشعبهم ممن ساهم فى حركة «المورافيد ـ Almoravid» التى تسببت فى تدمير واسع النطاق فى المنطقة الأيبيرية. وإن أسلاف هؤلاء الذين اختطفوا وسيقوا إلى البرتغال عام ١٤٤٤م، وكانوا يركبون الجمال ويلبسون الجلود، صاروا من خلال مراكش ثم أيبيريا حكّامًا لإمبراطورية تمتد من النيجر والسنغال فى إفريقيا إلى «إبرو ـ Ebro» فى إسبانيا».

ويعلق هيوتوماس «الحقيقة أن البرتغاليين كانوا يصطادون الإفريقيين ويحولونهم إلى عبيد مَحْض انتقام من الأفارقة المغاربة والسيطرة الإفريقية المغربية على شبه جزيرة أيبيريا (إسبانيا والبرتغال)، إن هؤلاء الأسلاف كانوا قد سيطروا على البرتغال لمئات من السنين السابقة قبل سقوط سبته، باختصار أن خطيئة هؤلاء الأسلاف هى ما أراد البرتغاليون أن ينتقموا من خلفائهم، ومنذ عام ١٤٤٤م، وما بعدها استمر البرتغاليون يأسرون المزيد والمزيد من الإفريقيين ويحولونهم إلى

عبيد، كان البرتغاليون وفرقهم يسيرون جماعات أربعات أو أكثر، ويذهبون إلى خليج أرجوين فى شمال موريتانيا وهم مسلحون تسليحًا جيدًا، وينزلون إلى الأرض فى المساء ويفاجئون قرى الصيادين فى هذه المناطق». وهذه الفنيات الخاصة بهذا الاختطاف كانت موروثة من الهجوم على المغاربة فى البرتغال وإسپانيا فلم يكن هناك بدع فى ذلك .

* * *

المال ... المال ... المال ...

أتى اصطياد الأفارقة بالكثير من المال لملك البرتغال هنرى الملاح ولقواده ولغيرهم من ذوى الأثر البارز فى حملاته، بما فى ذلك أساقفة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. فى ١٤٤٢م نجد أن البابا يوجينياس الرابع أعلن رعايته لحملات خطف الرقيق التى يقوم بها الملك هنرى فى إفريقيا، وأصدر بذلك بيانًا باباويًا. وفى الخمسينيات ١٤٥٠ـ ١٤٥٩م فإن البابا نكولا الخامس وكالكتاس الثالث أصدرا موافقاتهما الحارة لهذه الحملات، وكانت الكنيسة راضية بنصيبها من الأسلاب فكان كل ما تطلبه هو تعميد العبيد المرسلين إلى أمريكا حتى يتيسر إنقاذ أرواحهم، وقد تصر الكنيسة فى بعض الأحيان أن تحمل السفينة ناقلة العبيد قسًّا يصاحبها فى رحلتها بين القارتين، وكان الأسقف يجلس على مقعده الرخامى على الشاطئ فيعمّد العبيد ويقبض نصيبه من رسوم التصدير، وقد وصلت هذه الضريبة فى القرن السابع عشر إلى ٣٠٠ كراون يدفعها تاجر الرقيق عن كل عبد.

ولكن لم يكن الأمر سهلاً من كل الجوانب بالنسبة للخطافين البرتغاليين، وقد سجل «زورارا» ما يلى: «إن رجالنا كانوا يرهقون جدًّا فى اصطياد من يعرف السباحة؛ لأنهم كانوا يغطسون مثل الحيتان فلا يدرك أثرهم أحد، وكانت متابعة أحدهم تمكن الآخرين من الفرار».

كان الذين يقودون حملات الخطف هذه يحصلون على إجازات وجوائز من الملك هنرى الملاح، كما أن هذه الحملات كانت مربحة إلى حد أن أحد الأساقفة أرسل سفينة لحسابه فى إحدى هذه الحملات .

إن الاستيلاء على هؤلاء العبيد لم يعطل الاكتشافات، بل كان هو مصدر تمويل

الاكتشافات الجغرافية فى الوقت نفسه . فهذه الأموال التى حصل عليها البرتغاليون هى ما مكّنَتْهُم من الإبحار حول شاطئ إفريقيا الغربية ، وسنة بعد سنة كانوا يخطفون العبيد حتى وصلوا إلى الرأس الأخضر ، ثم اتجهوا جنوبًا إلى جزيرتى جورى وداكار فى السنغال . وفى هذا الوقت بدأ الإفريقيون يتعلمون كيف يدافعون عن أنفسهم من الأوروپيين ، كانوا يستعملون القوارب الخشبية الطويلة المصنوعة من جذوع الشجر بمهارة ويستخدمون المجداف ولا يعتمدون على الرياح .

ويذكر هيوتوماس أن واحداً من حاشية الملك هنرى فقدَ حياته فى السعى وراء العبيد الإفريقيين فى واحدة من هذه الحملات ، وكذلك «نونو ترستاو» أحد الطليعيين الأوائل فى اختطاف الرقيق مات أيضًا فى سعيه وراء عبد ، وأيضًا «نبيل دانماركى» أول من أبحر لغرب إفريقيا من شمال أوروپا بعد أن انضم إلى حاشية الملك هنرى اختطف وقُتل فى جورى ١٤٤٨م .

وعندما زاد عدد القتلى البرتغاليين قرر الملك هنرى أن يغيّر أساليبه ، أصدر تعليماته إلى أحد قواده هو «جوا فرناندس» أن يغيّر كل أساليب العمل البرتغالى فى اصطياد العبيد ، فبدلاً من أن يصطاد البرتغاليون العبيد عليهم أن يشتروهم ، وهذا ما تغير به إلى الأبد وجه تجارة الرقيق عبر الأطلنطى .

* * *

بداية الشراء

إطاعةً لتعليمات الملك هنرى فإن «جوا فرناندس» ظل طوال عام ١٤٤٥م على ساحل أرجوين يجمع المعلومات ، واكتسب ثقة الأهالى المحليين ودرس الأسواق ، حيث كان يمكن تبادل الذهب والعبيد ببعض السلع الأوروپية المتواضعة .

ومن ثَمَّ بدأ شراء العبيد بدلاً من اختطافهم ، شراؤهم من الإفريقيين أنفسهم . وقاد هذا إلى السؤال المهم جدّا وهو : لماذا غيّر الإفريقيون تفكيرهم ، لماذا تحول الإفريقيون فجأة من مقاومين لخطف البرتغاليين للعبيد إلى جمعهم هم للعبيد وبيعهم للبرتغاليين؟

يقول هيوتوماس : إن بيع أى حاكم لشخص من شعبه يمكن أن ينظر إليه باعتباره عقوبة قاسية ، وعندما كان الملوك الإفريقيون وغيرهم يبيعون أسرى الحرب والغزوات على القبائل الأخرى من جيرانهم كانوا ينظرون إلى هؤلاء الأشخاص باعتبارهم أجانب ، فلا يهمهم المصير الذى ينتظرهم وهم يكرهونهم . لم يكن هناك شعور بالقرابة بين الشعوب الإفريقية . هؤلاء المسجونون أو الأسرى الذين كانوا يؤسرون كانوا أصغر الطبقات فى المجتمع فى إفريقيا ، وكانوا يُكلفون بالأعمال الشاقة ومنها استخراج الذهب من المناجم .

ولكن هل هذا يشرح بشكل كاف لماذا دار الإفريقيون هذه الدورة المعاكسة فجأة ، وصاروا يبيعون شعبهم بدلاً من أن يدافعوا عنه؟ . . ومن أين كان يأتى أسرى الحروب ، ومتى كانت الحروب تبدأ وقتها ، قبل أن يأتى البرتغاليون ويخطفوا العبيد أم بعد ذلك؟

على عكس ما يحكيه الرحالة الأوروپيون من أقاصيص عن الإفريقيين من أنهم لم يكونوا أفضل من الوحوش وأنهم كانوا يعيشون بين الأشجار ، الأمر كان على عكس ذلك تمامًا فعندما أتى الأوروپيون واجهوا حضارة ومجتمعات مركبة ومتحضرة فى إفريقيا .

يعترف هيوتوماس فى كتابه «فى هذا الوقت كان صهر الحديد والصلب فى غرب إفريقيا يماثل ما كان يحدث فى أوروپا فى القرن الثالث عشر ، إن سنى چامبيا الإقليم الواقع بين نهرى السنغال وچامبيا قامت به صناعات الحديد والنحاس . وكانت نوعية الحديد الإفريقى تقترب من حديد «توليدو» قبل القرن الخامس عشر ، وهذه المعادن كانت تصنع منها معظم الأدوات المنزلية الإفريقية مثل السكاكين والبلط والفئوس وغيرها ، وكان الحدادون على دراية عالية ، وكانت صناعاتهم فى السلاسل وغيرها متقنة وناعمة إلى حد أن الحرفيين الأوروپيين لم يكونوا يستطيعون أن يقلدوها . هكذا كتب أحد القواد الهولنديين عام ١٧٠٠م» .

ويستمر هيوتوماس قائلاً : «إنه حقيقة أن إفريقيى غرب إفريقيا لم يعرفوا العربة ذات العجل ، ولكن هذا النوع وقتها كان نادرًا فى أوروپا أيضًا ، وفى كل الأحوال فإنه من الزيف أن نصف غرب إفريقيا فى وقت اتصالها بالبرتغال وغرب أوروپا أنها

كانت شعوبًا متخلفة، فهم كانوا فى مجالات كثيرة أكثر تحضرًا، وفى مستوى أرقى مما كان عليه الإسپان والبرتغاليون فى العالم الجديد، بل لعله كان أعلى فى بعض النواحى من المستعمرين البيض».

إذن لماذا باع الإفريقيون العبيد؟ ولماذا وافق الإفريقيون الذين عاشوا فى مجتمعات متحضرة على بيع شعبهم إلى الأوروپيين؟ إن المؤرخ الأمريكى الإفريقى د. كلارك لديه الإجابة الأصوب؛ ففى محاضرته فى لندن ١٩٨٨م التى سبق الإشارة إليها قال ما يلى: «إن كتب التاريخ التى لديك لا تذكر لك أن حادثًا كبيرًا وقع فى عام ١٤٩٢م ينبغى أن يعيره الإفريقيون الاهتمام، وهو أنه فى عام ١٤٩٢م فإن «سونى على» إمبراطور واحدة من الأمم الإفريقية الكبيرة والأخيرة فى غرب إفريقيا هى مملكة سونغاى، غرق فى طريق عودته إلى بلده بعد معركة جرت فى الجنوب، وكان حاكمًا مقتدرًا. وبعد وفاة «سونى على» حدث تقوض فى السلطة واضطراب فى سونغاى على مدى عام، حتى استطاع أحد العامة وهو «محمد أبو بكر تورى» أن يصل إلى الحكم نتيجة لهذا الاضطراب، وكون آخر الأسر المالكة الكبيرة التى حكمت دولة مستقلة فى إفريقيا، وشكلت الدولة الوطنية قبل أن تغزو تجارة العبيد وتنتشر داخل الأراضى الإفريقية، هذه الدولة القومية الإفريقية الكبيرة كانت تشمل مساحة واسعة جدًّا. إن النقطة الأساسية المتعلقة بهذا الأمر أنه حين كانت تجارة العبيد تبدأ على طول الساحل الإفريقى فإنه فى داخل إفريقيا الغربية كانت توجد دولة قومية كبيرة تعيش أيامها الأخيرة، فبعد وفاة «محمد أبو بكر تورى» الذى خلف «سونى على» بدأت هذه الدولة يغزوها المراكشيون والملك الأسود المسمى «منصور الثانى»، ومع استخدام المرتزقة الأوروپيين فقد أرسلوا جيشًا عبر الصحراء؛ ليغزو الدولة ويدمروها وقد نجحوا فى ذلك، ودمرت دولة سونغاى أكبر وآخر دولة قومية كبيرة فى غرب إفريقيا، واهتز بذلك الهيكل الإفريقى كله.. وبكلمات أخرى فإن تدمير آخر الدول القومية الكبرى فى غرب إفريقيا كان يعنى وجود وفرة من أسرى الحرب واللاجئين يمكن اصطيادهم وبيعهم بوصفهم رقيقًا».

وبالرغم من ذلك هناك شىء يجب أن يذكر لأنه حقيقى، فباستثناء النزيف الذى حدث للموارد الإفريقية وما صنعه تجار الرقيق العرب، فإن إفريقيا كان لديها من

القدرة ما يكفى ومن التنظيم ما يمكنها من منع التجارة الأوروپية للرقيق، وهذا يترك سؤلاً مهمّا آخر بغير إجابة: لماذا إذن أقدم الإفريقيون من موريتانيا فى الغرب إلى موزمبيق فى الجنوب الشرقى على بيع الرقيق إلى الأوروپيين؟ هل أغراهم الأوروپيون بالبضائع والمشروبات الرخيصة؟

* * *

استمر البرتغاليون يكتشفون الساحل الإفريقى، وكانوا يشترون العبيد ويأخذونهم معهم إلى البرتغال، وعندما توفى هنرى الملاح فإن خلفاءه الابن فرنا وأخاه الملك أفونسو الخامس لم يكونا مهتمين بإفريقيا، و من ثَمّ نقلا مسئولية الممتلكات البرتغالية فى إفريقيا إلى رجل الأعمال اللشبونى «فرناو جومز» مقابل أن يدفع ٢٠٠ ألف ريس Reis (عملة) كل عام للأسرة المالكة البرتغالية. وكان جزء من الصفقة أن يتعهد جومز بأن يستكشف كل عام ٣٠٠ ميل فى الطريق الساحلى فى إفريقيا.

يقول هيوتوماس: إن هذا المشروع غير العادى صار ناجحًا جدّا، بدأ من سيراليون وبتوجيهات من جومز فإن القباطنة أبحروا، حيث وجدوا ما عُرف بعد ذلك بـ«جرين كاست ـ Grain Caste» جنوب سيراليون وهى ليبيريا الآن، ثم أبحروا تجاه الشرق حيث ساحل العاج «كوت ديڤوار» ثم إلى الساحل الذى أسماه البرتغاليون «المينا» (وقد يكون لفظ المينا جاء من الميناء بالعربية أو يكون محرفًا للفظ أمينا وهو المنجم فى اللغة البرتغالية؛ لأنهم صاروا أخيراً على مقربة من مناجم الذهب التى فى غابة آكان أى ساحل الذهب، غانا حاليّا).

وقد غنمت البرتغال أموالاً كثيرة من بيع الرقيق أكثر من كل ما تجمعه من ضرائب على مستوى المملكة كلها، كان بيع الرقيق مربحًا لسبب بسيط وهو أن التجار حصلوا على الرقيق مقابل لا شىء، فمثلاً الأم وابنها كانا يباعان فى سيراليون ١٤٧٥م مقابل حوض للحلاقة وثلاث أساور من البرونز مثلاً.

وفى ١٤٨١م فإن الأمير جاوو الذى صار الملك جاوو الثانى أرسل «ديو جودى أزامبوزا» وهو موظف حكومى خبير سبق أن خدم الأسرة المالكة أرسله ليبنى قلعة فى المينا هى «ساوجورج دى مينا»، وهى أول وأكبر بناية أوروپية أقيمت فى المنطقة

الاستوائية، ويسجل هيوتوماس أن «أزامبوزا» ظهر على الشاطئ ومع مائة من البنائين والنجارين وكمية من الأخشاب والطوب والحجر، وبنيت القلعة وكان الغرض الأساسى من بنائها هو حماية البرتغاليين الأوروبيين من الأوروبيين الآخرين، وقد أقيمت القلعة فى مكان قريب من نهر الكوبرا ومن الطريق الذى يقود إلى مناجم الذهب فى غابات الآكان (غانا).

كانت «المينا» منشأة ملكية فلم يكن التجار الأفراد مسموحًا لهم الاقتراب منها وصارت تحكم ذاتيًا وتحت تصرف الحاكم البرتغالى، ويقال: إن «نانا كوامينا» ملكة منطقة «المينا» كانت غير موافقة على السماح للبرتغاليين ببناء القلعة فى هذا المكان ولكن أزامبوزا استخدم المكر والخداع الأوروپى للحصول على الموافقة.

وبعد ذلك أنشأ البرتغاليون عددًا آخر من الحاميات الأصغر فى شاما واكرا واكسيم، واستخدمت كلها فى حبس العبيد فيها إلى حين تصديرهم إلى الأمريكات.

وفى عام ١٤٨٦م أرسل البرتغاليون «جوا افونسو افييرو» لاستكشاف ساحل بنين، وعندما وصل إلى المدينة العظيمة «بنين» كان مندهشًا من جمالها ووجدها مثيرة للخيال كما يذكر هيوتوماس، وبعدها بسنوات عندما وصل الهولنديون إلى مدينة «بنين» وجدوها تسترعى الانتباه، وكتب أحدهم عند عودته إلى بلاده: «إن المدينة تبدو كبيرة جدًا وعندما تدخل إليها ستسير فى طريق عريض جدًا أعرض سبع أو ثمانى مرات من شارع وارموز فى أمستردام، إن قصر الملك هو تجمع من مبان تشغل فراغًا كبيرًا مثل هارلم ومحاط بالأسوار، وهناك وحدات متعددة لوزراء الأمير وللحاشية القريبة أغلبها فى ضخامة المبانى الحكومية فى أمستردام، وهى مدعمة بأعمدة من الخشب مغلفة بالنحاس نظيفة ولامعة، والمدينة تتكون من ٣٠ شارعًا رئيسيًا مستقيمة بعرض ١٢٠ قدمًا فضلاً عن شوارع جانبية غير محدودة، والمنازل قريبة بعضها من بعض ومنسقة بنظام طيب، إن هؤلاء الناس لا يمكن القول إنهم أقل من الهولنديين بالنسبة للنظافة، إنهم يغسلون وينظفون منازلهم كما تنظف عدسات النظارة اللامعة».

أقام البرتغاليون مراكز تجارية فى مملكة بنين وعلى ساحل غانا كان أهمها

أرجوين والمينا ، ثم نزلوا جنوبًا إلى سواحل الكونغو ، ثم وصلوا إلى أنجولا وأسسوا نقاطًا ساحلية مؤقتة سرعان ما تحولت إلى وجود دائم .

وفى شرق القارة أدت الرغبة لدى البرتغاليين فى وجود محطات فى الطريق إلى الهند ، إلى الاستيلاء على مراكز فى الساحل الشرقى لإفريقيا ، ودخلوا فى معارك مع العرب الذين كانوا يسيطرون على تلك المناطق ، ولم يأت عام ١٥٢٠م حتى كان البرتغاليون قد استولوا على كلوه وزنجبار وبمبا وممبسه ومالندى ومقديشيو ، ووصلوا موزمبيق عام ١٥٣٠م ، وأنشأوا حصونًا حربية ومراكز تجارية كان أهمها مركز سوفالا الذى كان ثغرًا عربيًّا ومركزًا لسلطة عربية ظلت لألف سنة .

ثم توقفت الجهود الكشفية الاستعمارية البرتغالية فى شرق إفريقيا ؛ بسبب ظهور الأسطول التركى فى مياه الساحل الشرقى الإفريقى .

* * *

Obeikandl.com

التورط الهولندى فى تجارة الرق

إن الهولنديين يعرفون كل شىء عن أبطالهم العاديين: أدميرال دى رويتر الذى أبحر إلى نهر التايمز ليلقن الإنجليز درسًا فى ١٦٦٧م، أبطال حرب الثمانين سنة ضد إسپانيا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر، وحديثًا أبطال المقاومة ضد الاحتلال النازى، وهناك البطل الأكبر لهم جميعًا «بت هاين»، وهو ضابط بحرى آخر فى القرن السابع عشر الذى فاجأ الأسطول الإسپانى فى هاڤانا (كوبا) واستولى على كل الفضة. . إن كل طفل هولندى ينمو وهو يغنى أغنية كُتبت عن بطولاته وأفعاله.

كل شىء يسجله التاريخ الهولندى ما عدا شأن واحد هو شأن الرق، وإنه ليدعو إلى الدهشة أن كتب التاريخ تصمت بالنسبة لهذا الأمر ولا تشير إلى أن «بت هاين» هذا الذى يحتفى به قاد حملة غير ناجحة فى ١٦٢٤م؛ للاستيلاء على لواندا فى أنجولا وانتزاعها من البرتغاليين بتعليمات من شركة الهند الغربية ومقرها أمستردام، ولا إلى أن سفن التجارة الهولندية كانت منذ القرن السادس عشر تجوب الموانى الإفريقية الغربية حيث تنشط تجارة الرق، ولا إلى أن جزيرة جورى التى كان يتجمع فيها الرقيق ظلت تحت سيطرة الهولنديين حتى باعوها للإنجليز ١٨٧٢م، ولا يعرف إلا القليل عن الصفقات التى أجراها الديپلوماسيون الهولنديون وبعثات التبشير والتجار مع قبائل الأشانتى والفانتى فى غانا والباكونجو وغيرهم فى الكونغو وأنجولا.

إن التصوير الشهير فى القرن السابع عشر للوفد التجارى الهولندى الذى كان يسجد أمام الملك «الفادو» ملك الباكونجو (وهى الآن امبانزا فى الكونغو)، لا يحكى لنا إن كانت هناك مفاوضات تجرى لإقامة حلف ضد البرتغاليين وللإمداد

obeikandl.com

بالماء والطعام والعبيد للمستعمرة الهولندية فى لواندا (أنجولا)، وكانت مستعمرة قلقة وغير مستقرة.

المشروع الاستعمارى الوحيد فى إفريقيا التى وجدت كتب التاريخ الهولندى أنه يستحق الإشارة يتعلق بالكاب (فى جنوب إفريقيا)، وهو فى ذاته مصدر المأساة الكبرى التى أدى إلى التفرقة العنصرية.

شهدت هولندا سنوات مجد فعلى على مدى أربعة قرون، كانت السفن الهولندية تبحر من أمستردام وميدل برج وغيرهما وتمضى جيئة وذهاباً على طول شاطئ إفريقيا الغربى، كان غرضها التجارة. وثَمّة أمْر آخر نادراً ما يذكر وهو تجارة الرقيق، وعندما تذكر هذه التجارة فى كتب التاريخ الهولندى تذكر كأنها شىء يفعله أناس آخرون.

فهم يقولون: إن هولندا تورطت فى تجارة الرق بالصدفة، وأن بعض السفن الإسپانية والبرتغالية التى استولى عليها الهولنديون كانت تحمل رقيقاً إفريقيين، وإنه فى أول مرة وصلت سفينة إلى ميدل برج تحمل هذه الشحنة البشرية العجيبة فإن الآباء الهولنديين لم يعرفوا كيف يتعاملون مع هؤلاء الإفريقيين فتركوهم أحراراً. ورغم أن هذا القول مشكوك فيه، وحتى لو كان قد حدث فإن كل ذلك تغير سريعاً عندما سيطر الهولنديون على برنامبوكو فى البرازيل فى ١٦٢٠م، وتحققوا من أنه لن تقوم مزارع هناك بغير الرقيق الإفريقى.

وكانت الطريقة الوحيدة لضمان الجدوى الاقتصادية لبرنامبوكو هى ممارسة هذه التجارة، وبالقوة إذا استلزم الأمر. وكانت أنجولا هى أكثر ما يمدهم بالعبيد، وبالذات الغزوات التى كانت تشن على لواندا.

يقول هيوتوماس فى كتابه الرائع الذى نشر ١٩٩٧ م بعنوان «تجارة الرق عبر الأطلنطى من ١٤٤٠م إلى ١٨٧٠م» يقول: «فى عام ١٦٤٠ م كان الوجود الهولندى دائماً فى كل من إفريقيا والكاريبى، وكان الهولنديون فى هذه السنوات هم القوة العالمية المسيطرة، يتلون البرتغال فى كلا الجانبين من الأطلنطى، ولديهم حيازات لا حصر لها فى الشرق أيضاً»، ويضيف هيوتوماس قائلاً: «إن التجار الهولنديين فى الخمسينيات من القرن السابع عشر كانوا لا يزالون يسيطرون على

سوق الرقيق فى الهند الغربية، وإن وضعهم المميز هناك يعكس أهميتهم العالمية، لقد بقيت هولندا القوة الاقتصادية العالمية المسيطرة فى أوروبا الوسطى وفى البلطيق، وظلت تجارة العالم فى أيديهم حتى القرن الثامن عشر عندما انتقلت السيطرة إلى لندن، ومع ذلك بقيت أمستردام سوقًا لكل شىء تحت الشمس».

وقد ظلت تجارة الرق تمارس فى سرية فى مزارع السكر الهولندية فى البرازيل أولاً، ثم فى الكاريبى. وسورينام ظلت لا يُعرف عنها شىء ولا عن ظروف معيشة الرق فيها، فلم يسجل فى التاريخ الهولندى إلا مزارع القطن فى سورينام بأنها هى التى ساعدت فى الدفعة الأولى للثورة الصناعية فى بريطانيا.

وطبقًا لما يقوله عالم الاجتماع «جودى كحلا» وهو إفريقى أمضى سنوات عديدة يضطلع على الأرشيفات الهولندية: «هناك شىء آخر يكمن وراء عدم الاهتمام النسبى بذكر تجارة الرق، إنه يتعلق بعدم القدرة على التعامل مع الماضى، فالتاريخ لم يسمح قط للهولنديين أن يصنعوا الأمر المشرف ويلغوا هذه التجارة، عندما تحين لهم الفرصة، مثلما فعل الإنجليز. فعندما انهارت الجمهورية الهولندية فى نهاية القرن الثامن عشر احتل الفرنسيون هولندا لمدد قصيرة وسيطر الإنجليز على المستعمرات الهولندية، فى ذلك الوقت كان الفرنسيون والإنجليز إما ألغوا تجارة الرق، أو كانوا فى طريقهم إلى ذلك، لم تكن الأراضى الواطئة (هولندا) لديها قط الفرصة؛ لكى تحرر نفسها من هذا الماضى المشين، وقد صار الأمر أكثر صعوبة عندما يجرى الكلام عن الماضى».

إن الاحتجاجات ضد تجارة الرقيق بقيت غير معروفة حتى إن الشاعر الهولندى الكبير فى القرن السابع عشر «بريديرو» عارض هذه التجارة صائحًا هذه العادة غير الإنسانية وهذه النذالة لا تعرف الله، ولكن بقيت كلماته غريبة فى تلك الأيام.

ويقال: إن بعض الوزراء الإصلاحيين فى هولندا وجّهوا دعوة ضد هذه التجارة وضد الظروف القاسية للعمل فى المزارع، وأن كاتبًا مشهورًا فى القرن التاسع عشر هو نيكولاس بيتس كان ضمن المجموعة الصغيرة التى نادت بإلغاء الرق، وأن البرلمان الهولندى عرف بعض المستنيرين القلائل من أعضائه كانوا ضد التجارة، ولكن كما يقول كحلا: «لقد كنت فى الأرشيفات ونظرت فى أوراقها، إن الاحتجاجات ضد

تجارة الرق لم أجد دليلاً عليه»، ويضيف « فى أرشيف هولندا تجد الصراع التقليدى بين التاجر والوزير، بين الرغبة فى تحصيل المال والدعوة لمكارم الأخلاق، أما بالنسبة لما يحدث فى مستعمرات المناطق الاستوائية فلا توجد مشكلة أخلاقية فإن ما يجرى هناك يجرى على همج متوحشين!

وعندما اتجهت الأمم الأوروپية الأخرى إلى إلغاء هذه التجارة، كان السياسيون الهولنديون حينذاك أسرع فى الإشارة إلى أنه لا يزال هناك ما يمكن الحصول عليه من المال من إلغاء هذه التجارة، فكانت الضرائب التى يؤديها القرويون وكذلك بيع محاصيل البن والسكر هما ما كانا يدفعان ثمن حرية العبد فى سورينام، كان نوع من الاستغلال يمول نوعًا آخر من الاستغلال وهكذا انتهت العبودية».

ويعلن الكاتب المعروف «فرانك مارسينينوس اريون»: أن ملاك الرقيق قد عوضوا عن فقدهم لهذا العمل فى حين أن ضحايا التجارة لم يُقدم إليهم قرش واحد، فى التجارة فإن التاجر دائمًا يربح وهو فى أيام الآحاد يجد مقعده فى الكنيسة فى الصف الأول.

يقول كحلا: إن هذا التحويل للحياة البشرية إلى سلعة الذى صنعه الأجداد هو أمر مؤلم لمن يعيشون فى القرن الواحد والعشرين، وأكثر مما يحتمله ويطيقه المعاصرون، ولكن عندما تطرح هذه المسألة، فإن حالة من الدفاع عن النفس تثور مثل أن يقول لك أحدهم: آه.. نعم هو أمر فظيع، ولكن لا بد أن الآخرين كانوا أسوأ، وهذا ما يسميه الكاتب الهولندى المعاصر «أدريان ڤان ديس»: «الاتجاه نحو الإنكار».

وسواء كان هؤلاء أكثر سوءًا أم لم يكونوا فإن هذا أمر خارج الموضوع. الموضوع أنه فى وقت ما فى التاريخ، فإن هولندا وواحدة من شركاتها الأولى المتعددة الجنسية كانتا متورطتين فى هذا الصنيع غير الإنسانى، وهذا أمر يتفق الجميع عليه الآن.

* * *

فى بداية الألفية الثالثة ظهرت دراسة فى شكل كتاب بعنوان: «٤٥٠ سنة من التورط الهولندى فى تجارة الرق» أعدها ب. سى. إيمر، وتركزت الدراسة على الجانب الاقتصادى لهذه التجارة، وسرعان ما صارت مادة لمناقشات عامة.

يقول إيمر فى دراسته: إنه مما نعتبره عنصريًا الآن كانت الكنيسة وقتها تقبله، فمن الدلائل المتاحة الآن أن الرجال الهولنديين والنساء الهولنديات فى القرن السابع عشر كانوا يحتاجون لتبرير معنوى للقيام بهذه الأعمال، وكما يجرى فى قصص الكتاب المقدس أن الإفريقيين كانوا سودًا، ومن ثَمّ فهم لم يكونوا شيئًا آخر غير أنهم كانوا من سلالة «حام بن نوح» الذى سَخر من أبيه وهو سكران وعوقب بالعبودية الدائمة لتهجمه، وأن كل ما يأمله الإفريقيون هو أن يكونوا مسيحيين بواسطة المحسن الهولندى الذى جاء لينتشلهم من هذا القدر الفظيع. وثَمّة تبرير آخر يورده إيمر، أن الرق كان بركة لدى الإفريقيين فإذا هم لم يباعوا رقيقًا فمن المؤكد أنهم كانوا سيقتلون بواسطة من اقتنصوهم.

حظى كتاب إيمر باهتمام كبير خاصة بعدما عرض فى التليفزيون والإذاعة، وأخذ الجدل حوله اتجاهين متعارضين، أحد هذين الاتجاهين تبنته جماعات الأقليات وسلالة الرقيق، والآخر تبناه عموم الهولنديين. أدان ممثلو الاتجاه الأول أفكار إيمر لغروره الغربى، وعدم تفهمه لأوضاع الرقيق، وتركيزه على الجوانب الاقتصادية وحدها. وقد واجه إيمر ذلك بقوله: إنه كان يحاول أن يكون موضوعيًا وهذا ما آثار ذرية الرقيق، وأن الأمر الوحيد الذى يمكن أن يوافقهم عليه هو أن هناك احتياجات أكثر يجب أن تكتشف عما حدث فى هولندا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية على مدى ٤٥٠ عامًا. وانحاز ممثلو الاتجاه الثانى إلى إيمر، وتساءلوا: ما الهدف من التاريخ؟ هل هو الكتابة بصدق عما حدث فى الماضى أو أنه وسيلة فى أيدى من يدعون أن لهم حقًا فى التعويض عن أخطاء الماضى؟ وهل آلام الماضى يمكن أن تترجم إلى أموال نقدية الآن؟

هذه السخرية لم تمنع سلالة الرقيق الذى استقروا فى الأراضى الواطئة (هولندا) من أن يثيروا مسألة تجارة الرق بشكل جدى، وقام البعض بعمل مسرحيات تمثل، وآخرون خاضوا مبادرات سياسية وتحدثوا عن التعويضات، ولكن دائمًا يحبطهم عدم الرد من السلطات الهولندية هناك.

ويحاول بعض المثقفين الآن من سلالة الرقيق إحياء ذكرى مأساة أجدادهم

بإقامة نصب تذكارى فى أمستردام يذكّر بالدور الهولندى فى الرق. وقد قام تسعة من فنانى سورينام وغرب إفريقيا والجزر الهولندية وهولندا بوضع تصميمات خاصة بهذا النصب، وعرضت هذه النماذج فعلاً فى قاعة مدينة أمستردام، ودُعى الجمهور للمشاركة فى اختيار أحسن تصميم يمكن بناؤه فى ميدان فسيح متاخم للمؤسسة الاستوائية الملكية.

وثَمَّة اقتراح بأن يكون الاحتفال فى يوم أول يوليو من كل عام لأن هذا اليوم من الأيام الوطنية الذى يحتفل به الهولنديون بانتهاء الاحتلال النازى لهولندا ١٩٤٥م. وفى أول يوليو أيضًا ١٨٦٧م ألغت الحكومة الهولندية الرق فى مستعمراتها، ويُعرف هذا التقويم فى سورينام «بكيتى كوتى» بمعنى: «السلاسل تنكسر». وفى الحقيقة هناك بالفعل احتفال يجرى كل عام فى ميدان سورينام ولكن الحضور فيه قليل. أو أن يكون يوم ١٧ أغسطس وهو يوم بدء ثورة العبيد التى حدثت فى كاراكاو عام ١٧٩٥م، وهذا يمكن أن يكون تذكارًا آخر يضم إلى التقويم الوطنى الهولندى.

obeikandi.com

الاستعمار الألمانى و«الكتاب الأزرق»

لا يوجد استعمار شرير واستعمار طيب، أو استعمار قاس واستعمار متسامح، فالاستعمار هو الاستعمار، بطش وإذلال وإبادة وسحق للأهالى الوطنيين. ولكن عندما يدون تاريخ الاستعمار فى إفريقيا، فإن الاستعمار الألمانى يصنف أنه أبشع وأقسى أنواع الاستعمار، وإن شعب جنوب غرب إفريقيا، الذى يطلق على دولته حاليًا اسم ناميبيا(١) بعد استقلالها، لم يقاس من التعذيب والبطش فحسب، بل وقعت عليه عملية الإبادة المنظمة الأولى فى القرن العشرين. وإن الحرب المأساوية التى شنها المستعمرون الألمان على شعب الهيريرو خلال عامى ١٩٠٤م و١٩٠٨م لم يكن الهدف منها إخضاع الأهالى فقط، بل إبادتهم إبادة كاملة. لقد أدت ثورتهم التى عرفت بانتفاضة الهيريرو ضد الحكم الألمانى إلى حرب مريرة استمرت أربع سنوات، عاش بعدها من بقى من الهيريرو محطمًا، وكان انتقام ألمانيا من هؤلاء الرعايا الذين تجرءوا على تحديها انتقامًا وحشيًا، وصار الهيريرو الذين كانوا يبلغون ٨٠ ألفًا من الرجال الأشداء لا يزيد عددهم عن ١٥ ألفًا من البشر المشردين.

---

(١) تبلغ مساحة إقليم جنوب غرب إفريقيا، الأقليم الذى يدور حوله هذا الموضوع عن «الكتاب الأزرق» ثلثى دولة جنوب إفريقيا، وأكبر من مجموع مساحتى فرنسا وبريطانيا معًا. وهو إقليم مستوى السطح، تحيط به الصحراء، وسكانه يتكونون من عدة قبائل أهمها وأكبرها عددًا قبيلتا الهيريرو والهوتنتوت، وهما من أكثر الشعوب الإفريقية أناقة فى الشكل، ذوو أطراف طويلة وقامات منتصبة ووجوه بيضاوية وجباه عالية وأنوف كأنوف النسر، هادئون ذوو رشاقة وكبرياء، يثيرون الإعجاب بوقارهم وقاماتهم. وهم مهرة كرسوا حياتهم لتربية الماشية، وكانت ثروتهم من الماشية حديث كل من رأى هذه القطعان فى القرن التاسع عشر. ولكن كانت القبليتان الهيريرو والهوتنتوت على عداء دائم، وعمل كل منهما على تجريد الآخر من أرضه وقطعان ماشيته.

obeikandl.com

والعجيب أنه لا يوجد الآن من يذكّر بهذه الحرب، ولا يوجد فى تلك البلاد نصب قومى يذكّر بأسماء أى من رجال شعب الهيريرو أو شعب ناما من يطلق عليهم بالهوتنتوت الذين كانوا الضحايا الأساسيين فى الحرب، أو يشار إلى معسكرات الاعتقال التى مات فيها الآلاف.

وعلى العكس فإن أسماء كل من أصيب من الألمان فى هذه الحرب سُجلت وحُفرت على حوائط الكنائس وفى الطريق إلى مجلس الدولة والبرلمان الألمانيين، وبقى الأدب المنشور محدوداً فى وقائع الألمان فى الحرب.

حتى الكتاب الأزرق الذى نعرضه والذى كشف عن عمليات الإبادة هذه، أمر بتدميره وحرقه بعد ثمانى سنوات من صدوره، بحجة أنه لا يدين العنصر الألمانى وحده، بل إنه يدين كل الجنس الأبيض المستعمر. وكانت الحكومة البريطانية قد أعدت هذا الكتاب اللعين وأمرت بنشره عام ١٩١٨م، وتعبير الكتاب الأزرق كان يستخدم فى تلك الأيام للإشارة إلى أى تقرير ينشره ويوزعه البرلمان البريطانى. والعنوان الكامل للكتاب هو «اتحاد جنوب إفريقيا ـ تقرير عن أهالى جنوب غرب إفريقيا وتعامل الألمان معهم»، أعد التقرير مكتب مدير جنوب غرب إفريقيا فى وندهوك (التى أصبحت فيما بعد عاصمة البلاد)، ونشر فى المملكة المتحدة بواسطة الناشر الرسمى للحكومة البريطانية (مكتب مطبوعات جلالة الملك)، وقدم الكتاب إلى مجلس البرلمان فى لندن فى أغسطس ١٩١٨م. ولكن بعد ثمانى سنوات فى عام ١٩٢٦م أمرت حكومة جلالة الملك وحلفاؤها فى جنوب إفريقيا بالتدمير الكامل لهذا الكتاب بعد أن أعيد الاعتبار لألمانيا من جانب الحلفاء عقب الحرب العالمية الأولى، وصار الكتاب مصدر إزعاج لألمانيا وللجنس الأبيض برمته؛ لما يصور به الأوروپيين من كونهم مغتصبين شديدى القسوة.

يدور الكتاب الأزرق حول الفظائع التى ارتكبت، **وهو يشير إلى أمر الإبادة الذى أصدرته الإدارة الألمانية الذى كان يحتم قتل كل رجل وكل امرأة وكل طفل من الهيريرو.** والكتاب يثير الإنسان إلى حد الغثيان بما حواه من أوصاف تفصيلية وصور فوتوغرافية وقتل المساجين من الجرحى وغير الجرحى ومن الرجال والنساء والأطفال الصغار، وحتى من استسلم منهم وهم فى الرمق الأخير، كان الجند

وملاحظو العمال فى المعسكرات يضربونهم بالسياط حتى الموت جزاء لهم على مقاومتهم، ومن استطاعوا الهرب من يد الجنود الألمان أبادتهم الصحراء؛ إذ إن من نجى من أبناء القبيلة هاموا فى أنحاء البلاد وهلكوا من الجوع والعطش، وذلك بعد أن فقدوا أرضهم وقطعانهم وحريتهم وحياتهم العائلية، كما تمزقت وحدتهم القبلية.

ولكن برغم حرص المستعمرين على إفناء الكتاب، فقد نجت بعض النسخ، وقد استطاعت المجلة الإفريقية المتخصصة «نيو أفريكان-New African» أن تحصل أخيراً على إحدى النسخ النادرة من الكتاب؛ فأفسحت له صفحاتها لنشر مقتطفات منه. وكشفت عن أسباب تأليف الكتاب ونشره، وعهدت إلى «جيرمى سلفتر» الأستاذ بقسم التاريخ بجامعة ناميبيا بتقديمه، فكتب ورقة ممتازة بعنوان: «سياسات المصالحة: إعدام الكتاب الأزرق»، وقد أضافت لى هذه الورقة الكثير فى بحثى هذا عن الاستعمار الألمانى.

ولا يسعنى إلا أن أقدم كل الشكر لمجلة «نيو أفريكان» التى اهتمت بالبحث عن هذا الكتاب الذى لم يرد الغرب أن نقرأه، ونشرت عنه فأضاءت لنا جانبًا خفيّا معتمًا حدث لشعب إفريقى كُتب عليه أن يُباد.

* * *

فى بداية الرّبع الأخير من القرن التاسع عشر نزل إلى ساحل إفريقيا الجنوبية الغربية تاجر ألمانى يدعى« لودريتز- Luderitz»، وكتب إلى وزارة الخارجية الألمانية يسأل: عما إذا كان لديها استعداد لحماية محطات التجارة التى اقترح تأسيسها على ساحل إفريقيا الغربى الجنوبى؟ فكتب بسمارك إلى بريطانيا يسألها بدوره: عما إذا كانت هناك ادعاءات بريطانية على منطقة ما هناك؟ فأجيب عليه: أن مستعمرة الرأس (جنوب إفريقيا) هى صاحبة الأمر.

استقر لودرتز فعلاً فى المنطقة، وتملك عن طريق المعاهدات ما يقرب من ٢١٥ ميلاً مربعًا بجوار خليج انجرا ورفع عليها العلم الألمانى، وذلك فى مايو ١٨٨٣م. وفى شهر أغسطس رغبت الحكومة الألمانية أن تضع هذه المنطقة تحت حمايتها، ولم تمانع حكومة بريطانيا أو حكومة الرأس(١)، فأعلنت ألمانيا فى ٢٨ أبريل عام

(١) كانت حكومة جنوب إفريقيا البريطانية تسمى وقتها حكومة الرأس. . .

١٨٨٤م وضع هذه الأجزاء تحت الحماية الألمانية واعترفت حكومتا انجلترا والرأس بالأمر وأعلن هذا رسميّا فى ٧ أغسطس، وهى تشمل المنطقة بين كونين ونهر الأورنج باستثناء المراكز البريطانية على خليج «ولفش– Walfish».

ولما هُزمت ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨م) استولت عصبة الأمم على المستعمرات الألمانية وعهدت بإدارتها إلى الدول المنتصرة وحلفائها، فمنحت إقليم جنوب غرب إفريقيا (ناميبيا) إلى اتحاد جنوب إفريقيا الذى ضمه إلى أراضيه.

كان من مصلحة الإدارة البريطانية وحلفائها الحاكمين لجنوب إفريقيا أن يظهروا سوءات ما فعله الاستعمار الألمانى بشعب ناميبيا؛ ليبرروا وجودهم ويشوهوا صورة ألمانيا المنهزمة ويزيدوا من كراهيتها؛ ولهذا صدر الكتاب الأزرق الذى يعتمد فى مادته على أقوال ٤٧ شاهداً على أحداث إبادة شعب ذلك الإقليم. ولكن بعد أن استنفد الكتاب غرضه السياسى ووجه نقداً لاذعًا لمرحلة الاستعمار الألمانى فى ناميبيا، صدرت الأوامر فى عام ١٩٢٦م بتدمير كل نسخ الكتاب، وذلك فى نطاق سياسة المصالحة الدولية بعد الحرب العالمية الأولى، ورغبة فى دمج السكان البيض المتكلمين الألمانية فى ناميبيا فى المشروع الاستعمارى الجديد الذى تشرف عليه حكومة جنوب إفريقيا البريطانية.

جامع الكتاب هو الميجور «توماس ليزلى أوريلى» الذى عُين فى ٢٢ أغسطس ١٩١٦م حاكمًا عسكريّا لإقليم «أمارورو–Omaruru» فى جنوب غرب إفريقيا، فنشط فى جمع مادته وأعد مسودته فى نهاية ١٩١٧م.

المنظر الأول فى الكتاب الذى يواجهه القارئ ويشكل النغمة الرئيسية لباقى أجزاء الكتاب، هو صورة لستة قتلى ناميبيين معلقين على أشجار، ويحيط بهذه الجثث عدد من الجنود الألمان.

يبلغ عدد صفحات الكتاب ٢١٢ صفحة وينقسم قسمين:

القسم الأول: يشمل ١٥٠ صفحة، تحتوى على ١٥ فصلاً كتبها أوريلى بعنوان: «الأهالى والإدارة الألمانية».

والقسم الثانى : يشمل ٤٩ صفحة بعنوان : «الأهالى وقانون العقوبات» ، وهو من إعداد أ . ج . ووترز الذى خدم باعتباره مفتشًا عن التاج البريطانى فى ناميبيا فى أكتوبر ١٩١٥م .

والصفحات الأخيرة من الكتاب الأزرق تمثل ملحقًا يتضمن مجموعة المستندات ، الأول منها تقرير طبى عن الوسائل الألمانية فى العقاب ، وهو مختصر وتصحبه إحدى عشرة صورة فوتوغرافية لعمليات الإعدام البشعة والنماذج المختلفة للسلاسل التى كانت توضع فى الرقاب ، والقيود التى قيدت بها الأرجل والسواعد ، وصور ظهور النساء المسلوخة ، وصور الهيريرو اللاجئين الذين عادوا من الصحراء وهم يموتون جوعًا .

والملحقان التاليان يتضمنان مستندات كتبت بالألمانية ، الأول منها هو خطاب أرسله الحاكم الألمانى إلى عماله وضباطه فى الإقليم التابع له ، والخطابات التالية أرسلها الموظفون الألمان وتتعلق بالشكاوى عن المعاملة السيئة التى يمارسها المواطنون البيض على السكان الأهالى السود فى مدينة «أودشخت» والإقليم المحيط بها .

إن الدور الذى قام به «أوريلى» فى الكتاب هو جمعه لشهادات شهود كانوا يعيشون فى إقليم أمارورو .

ويبدو أن التقرير كله أعدَّ فى أقل من ١٢ شهرًا باعتبار أن المبادرة الأساسية لهذه الوثيقة قد أنجزت فى مارس ١٩١٧م ، فى حين أن الإضافة النهائية للتقرير وهى المقدمة التى كتبها چورچس الحاكم الإدارى الأول فى جنوب غرب إفريقيا مؤرخة فى ١٨ يناير ١٩١٨م .

وكان «أوريلى» قد عُين عام ١٩١٦م عضوًا فى المحكمة الجنائية الخاصة التى مارست عملها كمحكمة عليا فى الإقليم خلال فترة الأحكام العسكرية من سنة ١٩١٥م إلى ١٩٢٠م . والملاحظ أن القسم الثانى من الكتاب الأزرق يتكون فى عمومه من تعليقات على القضايا التى سمعتها هذه المحكمة مع إضافات عن المرحلة الألمانية ، وأن ٨٥ حالة من الحالات التى أشار إليها ووترز فى القسم الثانى من الكتاب ، قد استمعت إليها المحكمة الجنائية الخاصة التى كان «أوريلى» عضوا بها .

ويبدو أن «أوريلى» قد ترك هذا العمل وغادر جنوب غرب إفريقيا بعد إتمام عمله فى الكتاب بقليل.

النقاش حول مصداقية وقائع الكتاب

بعد استقلال ناميبيا بدأ الكتاب الأزرق يصير بؤرة للنقاش الأكاديمى، وقد ظهر هذا النص الخبىء من بين ظلال الأرشيفات. هوجم الكتاب فى مقال نشرته عام ١٩٩٥م الراحلة « برجيت لاو» بعنوان: «المؤكدات غير الأكيدة فى حرب الهيريرو ١٩٠٤م» وفيه نقدت البحث الذى قام به المؤرخ هوست دريشلار، ونشر فى عام ١٩٨٠م بعنوان: «دعنا نموت مقاتلين» ذكرت فيه أن الألمان اتبعوا سياسة القتل الجماعى ضد شعب الهيريرو، وقد وصفت «لاو» هذا الزعم بأنه غير حقيقى وغير صادق.

يقول «هوست دريشلار»: إن الكتاب الأزرق لم تدمره فقط الإدارة الاستعمارية لجنوب إفريقيا ١٩٢٦م، ولكنه أيضًا أنكره المؤلفون الألمان إنكارًا مقصودًا؛ لأن الكتاب يقدم صورة صادقة عن الأحداث التى جرت فى حرب ١٩٠٤-١٩٠٨م وخلالها أبيد نحو ٦٥ ألفًا من الهيريرو. ويعترف دريشلار بأن ثَمَّةَ ضعفًا فى النص فيقول: «إن الفصول الأولى تحتوى على عدد من الأخطاء الواقعية، وأكثر من هذا فإن اللهجة العامة للعمل تكشف اتجاهًا لتصوير السياسة الاستعمارية البريطانية على نحو مثالى، إلا أن الكتاب يعتبر مصدرًا أوّليًا مهمًّا للشهادة».

أما «لاو» فقد اتخذت موقفًا معاديًا جدًّا للكتاب الأزرق، ووصفته بأنه منشور دعاية إنجليزى ضد الألمان، وأكدت أنه كان هناك محض حرب دعاية ليس لها أى مصداقية. وفضلاً عن ذلك فهى تدعى أن توزيع الكتاب جرى من اتحاد جنوب إفريقيا وموظفيه، متجاهلين أن إعدام الكتاب هو جزء من السياسة الدولية فى هذا الوقت.

أثار مقال «لاو» جدلاً واسعًا حول مصداقية القتل الجماعى، حتى إن عددًا من الأكاديميين قبلوا التحدى الذى أثارته فى نقدها لدريشلار ومصداقية الكتاب

الأزرق . وعن الفصل الرئيسى عن انتفاضة الهيريرو الذى قدم دريشلار فيه ١٤٠ ملحوظة تتعلق بمصادر شهادته .

وفى الاستجابة المباشرة لملاحظات «لاو» فقد صدرت دراسة تحمل عنوان : «نحو الفداء ـ التاريخ السياسى والاجتماعى لشعب الهيريرو فى ناميبيا بين عامى ١٨٩٠م، و ١٩٢٣م» ذكرت الدراسة أن الجزء الأكبر من الشهادة التى تضمنها الكتاب الأزرق هى ترجمة من النصوص الألمانية التى نشرت فى ذلك الوقت، والتى كانت سجلت ما أثبتته لجنة تقصى الحقائق الألمانية حول آثار العقاب البدنى . ويؤكد مؤلفو الكتاب على المدى الذى جمعوا فيه الشهادات الشفهية ممن عايشوا حرب ناميبيا من ١٩٠٤م ـ ١٩٠٨م وتعرضوا للتفاصيل المحزنة والمرعبة التى تلت ذلك، وهى وإن كان لا يتصورها الخيال فقد رويت عن شهود رأوها رأى العين .

وأكثر من هذا فإن «أوريلى» يدعى أن هذه القصص جمعت باعتبارها أقوالاً ذكرها طواعية من كانوا يعيشون من الرؤساء والقادة البارزين للقبائل المعنية، وأن الشهادات الشفهية لشهود ناميبيا بعد الحرب بقيت منسية فى حين أن الأقوال المكتوبة للقوات الألمانية صارت تتكرر ويُعاد إنتاجها كل حين .

***

الرد الرسمى الألمانى

فى ١٩١٩م بعد عام من نشر الكتاب الأزرق ، نشر المكتب الاستعمارى الألمانى ردّاً رسميّاً بعنوان : «معاملة الأهالى والشعوب الأخرى فى الممتلكات الاستعمارية لألمانيا وانجلترا»، ردّ على الكتاب الأزرق الإنجليزى الصادر فى أغسطس ١٩١٨م وشكك فى الشهادات الواردة فى الكتاب التى صدرت من أهالى هم فى نظره مخلوقات بدائية فقيرة، ليس لديهم أى فهم لمعنى اليمين الذى يحلفه الشاهد ولا للشهادات التى تسجل .

ويذكر الرد الألمانى أن الأسود غير المتعلم ليس لديه أى تمييز ولا يدرك الفرق بين الحقيقة والخيال، ومن ثَمّ فإن الواحدة والخمسين شهادة الواردة فى الكتاب قصص

من نسج الخيال، وإن هؤلاء الذين يألفون السيكولوچية الإفريقية يعرفون كيف أن الأهالى يحبون أن يمزجوا خيالاتهم بقصص الكوارث، وكيف أنهم يبتكرون ذلك بشكل غير طبيعى، فى حين أنه لا يكون هناك أى أساس لهذه الخيالات.

إن التقرير الألمانى المضاد يدعى أنه عندما يستدعى الأهالى للشهادة فإن خيالاً منطلقًا دائمًا ما يشوه رؤيتهم للحقيقة، وعلى عكس هذه النغمة العالية للاتهامات الفارغة فإن جزءًا مهمّا من الدفاع الألمانى يعتمد على أن الجنود الألمان امتنعوا عن تنفيذ أوامر الچنرال الألمانى ڤون تروثا الخاصة بإبادة الهيريرو، ولكن لسوء الحظ فإن الجنود فعلوا ذلك فى صمت.

ويثير المكتب الاستعمارى الألمانى الانتباه إلى ما يعتبره واحدة من أقوى حجتين ضد مصداقية الكتاب الأزرق وحقيقته، أولها أن قليلاً من البيض هم من شهدوا على هذه الأمور، وأن محاولة التحليل والنقد هذه اعتمدت فى الأساس على لون البشرة الخاص بمن سُجلت أقوالهم فى الكتاب الأزرق.

وطبقا لما يذكره المكتب الاستعمارى فإن الشهادات التى قدمها الكتاب الأزرق يجب ألا تؤخذ بجدية؛ لأنها لا تعتمد سوى شهادة واحدة لرجل أبيض.

وآخر مسمار فى نعش مصداقية الكتاب طبقًا للمكتب الاستعمارى الألمانى هو أن هذا الرجل الأبيض الوحيد يظهر أنه ليس أوروپيّا، ولكنه من رأس الرجاء الصالح أى أنه من جنوب إفريقيا ودمه دم ملون وخليط.

وفى غياب تاريخ مسجل يُعْتَمَد عليه، فإن المؤلفين الإنجليز للكتاب الأزرق متهمون بارتكاب خطأ، باعتبار أن المعلومات التى أتوا بها من الأهالى هى معلومات غير أمينة، ولا تمثل الحقائق الواقعة؛ لأن الأهالى يكذبون.

والنقد الثانى الذى يثيره الألمان بالنسبة للكتاب الأزرق أنه كتب كأداة فعّالة يستخدمها الوفد البريطانى فى المفاوضات التى جرت فى نهاية الحرب العالمية الأولى.

وإن جدول الأعمال البريطانى طبقًا لما يقوله الألمان هو محاولة إفقاد الثقة فى ألمانيا بحسبانها دولة استعمارية؛ لتأكيد أن المستعمرات الألمانية السابقة يتعين أن تبتلعها الإمبراطورية البريطانية. وبكلمات المكتب الاستعمارى الألمانى فإن الكتاب الأزرق هو مسخ خفى للحقيقة وتصدير كاريكاتيرى.

obeikandl.com

من الواضح أن الشهادات التى تضمنها الكتاب الأزرق لعبت دوراً مهمّا خلال مناقشات ڤرساى (مؤتمر السلام ١٩١٩م)[١] عن مستقبل المستعمرات الألمانية، وكان الحاكم السابق لشرق إفريقيا الألمانية المسمى «هنريك شنى» يستخدم هذه الحجة بقوة، زاعمًا أن الأساس الذى بُنى عليه الكتاب الأزرق جاء بعد تشكيل اللجنة الخاصة فى مارس ١٩١٧م التى أعدت المادة المطلوبة للوفد البريطانى فى مؤتمر السلام بڤرساى. وذكر أن هذه اللجنة هى التى حركت الهجوم ضد الإدارة الاستعمارية الألمانية، كما ذكر «شنى» فى كتيب صغير أصدره قبل ذلك بعنوان: «كيف استولى على المستعمرات الألمانية؟» زعم فيه أن الكتاب الأزرق وضع فى إطار المنافسة الاستعمارية القائمة. وعندما فرضت معاهدة ڤرساى على ألمانيا، فإن سوء الإدارة المزعوم لمستعمراتها استخدم كذريعة لتهدئة الشكوك حول الاتهامات، ولتبرير أن انجلترا لم تذهب إلى الحرب للسيطرة على مزيد من الأرض. وذكر «شنى» أيضًا أن رئيس الوزراء البريطانى «لويد چورچ» فى ١٤ يناير ١٩١٩م استخدم المثل الخاص بناميبيا فى مفاوضات ڤرساى للقول بأن ألمانيا لا تستحق أن تكون قوة استعمارية؛ لأنها فى جنوب غرب إفريقيا كانت تتبع سياسة مخططة للتفرقة العنصرية!!

حرب الكلمات

فى يونيو ١٩١٨م قبل أن يقدم الكتاب الأزرق إلى البرلمان البريطانى فى أغسطس بوقت قصير، أرسل «چورچس» الحاكم الإدارى البريطانى الأول لجنوب غرب إفريقيا إلى كل المبعوثين العسكريين فى ناميبيا: «لتبذلوا جهدكم لقمع أى محاولات تتعلق بسوء المعاملة للأهالى؛ لأن البريطانيين يجب أن يكون لهم سجل نظيف فى هذا الشأن. . وهذا أمر جوهرى إذا كنا نريد أن نستخدم سوء المعاملة الألمانى مع الأهالى باعتباره سببًا فى استبقاء هذا البلد».

وبعد ذلك كتب «چورچس» فى تقرير رسمى حُرر بعد توقيع معاهدة ڤرساى «لقد استخدم الكتاب الأزرق فى پاريس استخدامًا كبيرًا، وهو الكتاب الذى

---

(١) وهو المؤتمر الذى انعقد لإعادة تقسيم العالم بين الدول المنتصرة فى الحرب.

جمعت مادته بناءً على التعليمات التى أصدرتها، وهو يتناول سوء معاملة الألمان لقبائل الهيريرو والقبائل الأخرى فى هذا البلد. وقد أعلنت بوضوح أنه ينبغى الاهتمام بهذه الشعوب المتخلفة فاقدة الأمل، وأن يكون ذلك واجبًا أساسيًّا لعصبة الأمم، وأن رعاية هذه الشعوب يجب أن تعطى لدولة أظهرت قدرتها على اتباع الضمير فى هذا الشأن»!!

من الواضح أن الكتاب الأزرق كان فى حقيقته أداة استخدمت لتجريد ألمانيا من أى أمل فى استبقاء إمبراطوريتها الإفريقية فى المباحثات الخاصة لتسوية السلام بعد الحرب. وفى الحقيقة أن الحديث عن الكتاب الأزرق فى سياق حرب الدعاية التى نشأت حول المسألة الاستعمارية، يفسر لماذا سهل على البريطانيين الموافقة على استبعاد الكتاب الأزرق من أرفف المكتبات فى العالم بعد أقل من عِقْد واحدٍ من السنين بعد أن أنتج المطلوب منه سياسيًّا.

كانت المناقشة حول الإثم الاستعمارى الألمانى تستخدم لدى كتّاب الدعاية البريطانيين على نطاق واسع. وكان «إيڤان لوين» واحدًا من كتّاب الدعاية الكبار الذين كتبوا عن الاستعمار الألمانى. وفى كتيب أصدره ١٩١٥م بعنوان: «الألمان فى إفريقيا: أهدافهم فى القارة السوداء وكيف غنموا مستعمراتهم الإفريقية؟» كتب يقول: «إن هناك تفسيرًا عنصريًّا لنجاح الاستعماريين البريطانيين ولفشل الاستعماريين الألمان، ويرجع ذلك فى رأيه إلى أن البريطانيين على خلاف الألمان يحوزون على صلاحية الفهم والقياس الصحيح لشعور الأهالى، ومن ثَمّ فهم قادرون على تقدير قوة المشاعر الأهلية، والألمان من ناحية أخرى يفتقدون الخصائص السيكولوچية الموجودة لدى الأنجلوساكسون؛ لذلك فشلوا كلما اتصلوا بالمشاعر الأهلية التى لم يستطيعوا أبدا فهمها».

وفى كتاب آخر أصدره «إيفان لوين» ١٩١٨م بعنوان: «الحكم الألمانى بإفريقيا» وهى نفس السنة التى نشر فيها الكتاب الأزرق، ذكر لوين بوضوح أنه يعتقد أن هناك أجناسًا خاضعة تعتبر أطفال العالم مثل «أهالى إفريقيا سواء اعتبروا عنصرًا اقتصاديًّا أو كائنات بشرية هم فى الحقيقة أطفال ولديهم عيوبهم، ولكن فى حالاتهم الفطرية مع عيوبهم الخفية التى نتجت عن الفساد والحضارة الحسية يمكن أن يتشكلوا ويكونوا كالعجينة فى يد المثّال».

إن هذا التصور للشعوب الإفريقية هو تصور مشترك بالنسبة للقوى الاستعمارية، وقد يكون مثله الواضح فى المادة ٢٢ من ميثاق الأمم المتحدة ذاتها الذى يعرّف الشعب فى بعض المستعمرات السابقة لألمانيا مثل ناميبيا، باعتبارهم «شعوبًا ليست قادرة بعد على أن تقف بنفسها تحت الظروف الضاغطة الصلبة للعالم الحديث».

* * *

الكتاب يجب أن يعدم

بعد أن أدى الكتاب الأزرق هدفه السياسى فى تدمير سمعة ألمانيا، تيقظ المستعمرون إلى أن نشر هذا الكتاب يعتبر خطأ كبيرًا ليس ضد ألمانيا فقط، بل ضد الجنس الأبيض فى عمومه فقرروا إعدامه.

وفى ٢٩ يوليو ١٩٢٦م صدر قرار من أعضاء الجمعية التشريعية بتدمير الكتاب، وكتبت صحيفة «وندهوك آدڤيرتيزر» فى افتتاحية عددها الصادر فى ٣١ يوليو «إن القرار لم يكتف بتدمير كل نسخ الكتاب الأزرق، ولكن طالب الحكومة البريطانية وحكومة جنوب إفريقيا بأن تحذف أية إشارة عن الكتاب تكون وردت ضمن وثائقها الرسمية»، أى أنه يتعين نسيان هذه المسألة تمامًا، ولعل ذلك يفسر لماذا لم يوجد أى أثر لهذه الأوراق فى الأرشيفات البريطانية، ولماذا اختفى الصندوقان المليئان بالمستندات الخاصة بالميچور «أوريلى» واضع الكتاب.

وفى الحقيقة أن تدمير الكتاب الأزرق يجب أن يُنظر إليه فى سياق الأشكال الدولية وروح المصالحة التى حلّت فى منتصف العشرينيات من القرن العشرين.

ومن الناحية الدولية فإن التأييد البريطانى لتدمير الكتاب الأزرق، يجب أن ينظر إليه مرتبطًا بحركات التعاون مع ألمانيا فى عصبة الأمم.

وفى داخل ناميبيا، فإن حملة إعدام الكتاب يمكن أن ينظر إليها، كنتيجة للجهود التى كانت تُبذل وقتها لدعم الوحدة داخل جماعة المستوطنين البيض من ذوى الأصول القومية الأوروبية المتباينة؛ وذلك ليكونوا قوة سياسية اجتماعية ذات مصالح داخل ناميبيا. وقد ذكر «هنريك شنى» الحاكم الألمانى السابق لشرق إفريقيا فى كتابه ١٩٢٦م أنه يجب إزالة الوهم الخاص بإثم الاستعمار قائلاً: «نحن الألمان ندين لأنفسنا ولأطفالنا ولوضعنا بين الأمم بأن هذه الانطباعات التى يبوء بها شرفنا

obeikandl.com

يجب أن ندحضها أمام العالم، نحن ندين بذلك من أجل مستقبل جنسنا؛ وذلك حتى ينجلى الطريق لعودة ألمانيا إلى صفوف الأمم المستعمرة».

وفى ١٩٢٦م قُبلت ألمانيا فى عصبة الأمم وضمنت مقعدًا دائمًا فى مجلس العصبة (وهى ميزة تقارن بالعضوية الدائمة فى مجلس الأمن اليوم).

وفى حين أن الجهود بُذلت لتطوير سياسة المصالحة الدولية من خلال عصبة الأمم، فإن شكلاً من أشكال التصالح الاستعمارى أخذ ينطرح داخل ناميبيا نفسها، خاصة بعد أن ظهرت رغبة قوية لدى الشعب الأسود بأن يستعيد أرضه والملكية التى فقدها تحت الحكم الألمانى، فاتبع ساسة جنوب إفريقيا الذين سيطروا على الإقليم استراتيچية تشجيع الاستيطان الأبيض السريع فى ناميبيا وتطوير الهياكل السياسية به، للمساعدة على إيجاد وحدة داخل جماعة المستوطنين البيض.

وشهد عام ١٩٢٦م حملة الانتخابات الأولى فى ناميبيا التى جرت بين البيض، وفى خطبة من خطب الحملة الانتخابية التى قام بها مستر «چوستى» رئيس الحزب الوطنى هناك، أيد التعاون بين كل فصائل الجماعات البيض وحث أصحاب المزارع على أنه يجب أن يعملوا معًا سواء كانوا ألمانًا أو هولنديين أو إنجليزًا.

إن المدى الذى بلغته هذه الحملة فى عملية المصالحة كان ظاهرًا أيضًا فى حديث المدير الجديد مستر «ويرث –Werth» الذى وصل ناميبيا خلال الحملة الانتخابية. وطبقًا لما جاء فى الصحف، فقد ذكر ويرث أنه متنبه إلى أن جنوب غرب إفريقيا تحتاج إلى مستوطنين مثل البوير، وأن الواجب الأول على الإدارة هو جلب العدد الكافى منهم لهذه البلاد. ومن المعلوم أن البوير[1] هم مستوطنون ممتازون، ولذلك فسيحاول أن يجلب أكثر ما يستطيع منهم من اتحاد جنوب إفريقيا. ومن جهة أخرى

---

(١) مع تزايد عدد المستعمرين فى جنوب إفريقيا تزايدًا طبيعيًّا خلال القرن الثامن عشر، أخذ كثير منهم فى البحث عن رزقه بالاشتغال بالتجارة والصيد مع الهوتنتوت سكان البلاد الأصليين، الذين تبادلوا معهم ما ينتجونه بالماشية، وبمرور الوقت صار هؤلاء المستعمرون زراعًا مُرَبّين للماشية وأطلق عليهم اسم «البوير الرحل ـTrek Boer » وكانوا روادًا أشداء سلخوا أنفسهم من تيار النمو الأوروبى ووطنوا أنفسهم على الملاءمة مع الحياة القاسية، وعزموا على كسب قوتهم من رعى الحيوان، ودخلوا بذلك منافسة مع السكان الأصليين، وهم فلاحون مربون للماشية مثلهم تمامًا، وفى النهاية أطلق أبناؤهم على أنفسهم لقب الإفريقيين أو الأفريكانر، وهم يختلفون عن غيرهم من الإفريقيين بنزعتهم الفردية الشهيرة وبشعورهم بالتميز والتعالى.

فهو يرحب بالمهاجرين من شمال أوروپا الذى أثبت التاريخ أنهم أحسن مستعمرين أتوا من هذا الجزء من أوروپا .

وبكلمات أخرى فإن المستوطنين الألمان كانوا يشجعون فى ذلك الوقت لكى يهاجروا إلى ناميبيا ، وأن الادعاء الذى ذكره الكتاب الأزرق من أن المهاجر الألمانى غير قادر بالمرة على أن يكون مناسبا باعتباره مستعمراً ، هذا الادعاء قد أغفل ونسى ، بل إن الحجة العكسية صارت هى المرفوعة وهى أن التاريخ قد أثبت أن الألمان هم فى الواقع أحسن المستعمرين ، وأن الصحف المحلية صارت تتكلم عن الوطنية المحلية وعن الجنود الألمان ، وكل ذلك ولد من رماد الكتاب الأزرق .

وفى يوليو ١٩٢٦م صوتت الجمعية التشريعية على أن اللغة الألمانية يجب أن تكون اللغة الرسمية فى ناميبيا . وهذا القرار يفسر لماذا بقى عدد من الهيئات التى شيدت قبل الاستقلال فى ١٩٩٠ م تحتوى على نصوص مكتوبة باللغات الثلاث الأفريكانر والإنجليزية والألمانية .

* * *

مقدمة الكتاب الأزرق

يبدأ الكتاب الأزرق بمقدمة كتبها فى عام ١٩١٨ الحاكم البريطانى لجنوب غرب إفريقيا «چورچس- E.H. Gorges» تحدث فيها عن أجناس أهالى البلاد وتاريخهم ومعاملاتهم قبل تسرب الأوروپيين إليهم حتى خضعوا للسيطرة الألمانية . وأعطى ملامح مختصرة عن الأساليب التى دخل بها النفوذ الألمانى والوسائل التى اتبعها الألمان لغرس سيطرتهم على الإقليم ، والكوارث التى ارتكبوها التى أدت إلى دعم هذا النفوذ وإلحاقه الرسمى بألمانيا .

وبالطبع عندما يكتب حاكم بريطانى فهو يكتب من وجهة النظر البريطانية ولصالح الاستعمار البريطانى ؛ وعندما يقارن بين الاستعمار الألمانى والاستعمار البريطانى يصف الأول بالقسوة والعنف ويصف ذاته بالرحمة والحنكة ، ويقارن بين وحشية الأول ونبل الثانى ، وهدفه من ذلك اقتلاع جذور الاستعمار الألمانى وتثبيت الوجود البريطانى ؛ لذلك علينا أن نأخذ كلامه بتحفظ فكلاهما كاذب غشوم ،

والحقيقة الأكيدة هى أن شعب هذا الإقليم شهد ظلمًا فادحًا على يد البيض، سواء كانوا ألمانًا أو بريطانيين.

وهذا نص المقدمة التى كتبها الحاكم البريطانى «چورچس» وتصدرت الكتاب: «فى عام ١٩٠٥م شن المستعمرون الألمان حرب إبادة على قبيلة الهيريرو[1]، ولم يكن هناك ذرة عطف على شعب الهيريرو البائس، ولا الاعتراف بأن لهم أية حقوق، أو أن لهم قيمة فى المشروع الاقتصادى لهذه المستعمرة، حتى الأغنام والماشية أبادها الألمان وشاركت أصحابها فى هذا المصير، ورغم أن أعين المستوطنين البيض نظرت إلى قطعان الماشية الخاصة بالأهالى بطمع شديد، فقد ضُحى بها ولاقت مصير ملاكها فى وجه أعمى للحاكم الألمانى «ڤون تروثا -Von Trotha»».

لقد كان الوقت المتاح قصيراً لجمع المادة اللازمة لهذا التقرير وللموازنة بينها وتحقيقها. ولكن بالرغم من ذلك فإن حجمًا ضخمًا من البيانات قد وجد بما يحوى من براهين غير قابلة للدحض عن الأعمال غير المناسبة التى أدخلتها ألمانيا فى خطتها لاستعمار هذا الاقليم، وعدم المبالاة التى تعمدت بها إنكار الحقوق المؤمنة للأهالى الموجودين هناك، وأعمال القسوة التى فرضتها على هذه الشعوب عندما صار العبء باهظًا جدّا وحاولوا أن يؤكدوا حقوقهم.

كان هدف هذا التقرير هو إظهار الملامح الرئيسية فى شكل مبسط ممكن استيعابه، وأعتقد أنه يوجد هنا ما يكفى لكى لا يبقى شك عن الإجراءات المرعبة التى اتبعت من الإدارة الاستعمارية الألمانية، سواء اتبعت تحت أوامر حكومة برلين أو بعلم منها، أو اتبعها أفراد من الألمان استوطنوا واستقروا فى هذه البلاد، أو ما

---

(١) تصنف دائرة المعارف البريطانية الهيريرو أو أوڤاهيريرو بأنهم شعب مرح من شعوب جنوب غرب إفريقيا (ناميبيا)، يحيون فى إقليم يعرف باسم دامارا لاند أو هيريرولاند، أى أرض الدامارا أو أرض الهيريرو، وهم يسمون أنفسهم «أوڤاهيريرو». عملهم الأساسى رعى الماشية، وهم جنس مقاتل، ويتمتعون بمهارات عسكرية ظهرت فى ثورتهم ضد الألمان ١٩٠٤-١٩٠٨م.

وقد أرسل الهيريرو أثناء ثورتهم إلى أهالى الساحل الشرقى لإفريقيا الخاضع للسيطرة الألمانية أن ينهضوا للثورة مثلهم فى غرب إفريقيا ضد الألمان، وبناء على نداءاتهم وتحريضهم انتشرت الثورة فى مناطق شاسعة جدّا من الغرب إلى الشرق، وكان هذا الصنيع مثلاً من أمثلة التضامن المتنامى بين الشعوب الإفريقية فى الزمن البعيد.

شعر به الأهالى البائسون تحت أحداث القسوة والنهب التى خضعوا لها بشكل منظم .

وإنه سيظهر أنه بالنسبة للأهالى لم يكن يوجد قانون فى الواقع الفعلى خلال ١٧ سنة الأولى بعد الإلحاق الرسمى لهذه البلاد بألمانيا١٨٩٠م ، وأن الحماية التى يتعين أن يكفلها القانون لم يكن مصدرها البواعث الإنسانية ، ولكن لأنها جاءت فى الوقت المناسب ؛ بسبب الإدراك بأن الأهالى هم عنصر مفيد فى هذه البلاد ، وأنه بغير قوة عملهم كان يستحيل رعى الماشية فى المناطق الشاسعة من البلاد المناسبة لذلك كما يستحيل التنقيب عن النحاس والماس فى المناجم .

فى القسم الأول من الكتاب ثَمَّة مسح سريع لتاريخ هذا البلد منذ التسرب الأول للأوروپيين إليه ، وقد ذكرت الوسائل التى اتبعتها ألمانيا لتأسيس سيطرتها ، وأظهرت الكوارث التى ارتكبت مع الأهالى .

وفى الباب الخامس عشر أشير إلى كيف أن الكاتب الألمانى «روربخ - Rohrbach» فى سياق حديثه عن إبادة قبيلة الهيريرو ١٩٠٥م ، أشار بأسى إلى الماشية والأغنام المملوكة للهيريرو التى أبيدت وشاركت أصحابها الأهالى فى هذا المصير ، ولم يكن هناك كلمة واحدة من العطف على شعب الهيريرو البائس أو الاعتراف بأن لهم قيمة فى المشروع الاقتصادى لهذه المستعمرة .

وعلى أية حال فإن الإنسان يستطيع أن يقتنع أن المستعمرين الألمان أو نسبة منهم بعد أن شبعوا من منظر الدم البشرى الذى أريق عامى ١٩٠٤ ، و١٩٠٥م ، صاروا أكثر قلقًا على مستقبل العمالة الإفريقية وأكثر حرصًا على الوجود الحى للأهالى لاستخدامهم فى إخراج الثروات الإفريقية ، وظهر ذلك لهم بعد إبادة الهيريرو ، ومن ثَمَّ فقد استخدموا نفوذهم الذى يملكونه لوقف عمليات الذبح المجنون للبشر التى كانت قائمة .

إن الذين بقوا من الأحياء من الأهالى صاروا عبيدًا ووزعوا على المزارع عمالاً زراعيين ، حرروا من رعب التدمير المنظم ، ولكنهم صاروا كأفراد خاضعين للعقوبات القاسية التى تقضى بها المحاكم وعساكر البوليس ، ولمبدأ العقوبات الإقطاعية الذى يفرضه النظام الألمانى ويملكه كل صاحب مزرعة على خدمه .

إن الحدود الخاصة بهذا النظام العقابى الإقطاعى قد صورت فى الجزء الثانى من الباب الثانى من الكتاب خلال وقائع إحدى الدعاوى القليلة التى نظرت أمام المحاكم الألمانية فى هذا الشأن، وكذلك فى الصور الفوتوغرافية التى وردت فى هذا الباب. وفى هذه الدعوى شخّص رئيس القضاة فى محكمة الاستئناف الألمانية هذه الأفعال التى يمارسها صاحب المزرعة الأبيض، باعتبارها من بقايا الأفعال السيئة لأيام العبودية، وقد خفض الحكم الذى كانت حكمت به المحكمة الأدنى بالحبس ٢١ شهراً فى سبع حالات منفصلة وصفت بأنها من أعمال القسوة ذات الطبيعة المرعبة، خفضت إلى حكم بالسجن أربعة أشهر وغرامة ٧٠٠ مارك، وإن اثنتين من الضحايا وهما من النساء ماتتا بعد ذلك بقليل، وإذا نظر فى الصورة الفوتوغرافية فإن المرء يعجب كيف لم تموتا أثناء الجلد.

القليل المعروف

إنه من الملاحظ أن كثيراً من العناصر الإنجليزية هنا لم تعرف إلا القليل عن هذا الأمر؛ لأن ألمانيا أبقت هذا البلد دائمًا بعيداً ومغلقًا بقدر ما تستطيع، وكان الأشخاص المنتمون لجنسيات أجنبية لا يساعدون ولا يشجعون على الاستقرار فى هذه البلاد.

وعندما ارتكب الأسوأ من هذه الأفعال وهو مذبحة الهيريرو، لم تكن حقول الماس الكائنة فى لدرازثجت قد اكتشفت بعد، وأن الشعب الأجنبى الذى انجذب لهذه السواحل عند فتح هذه الحقول لم يكن وُجد بعدُ. وقليل من المستوطنين فى اتحاد جنوب إفريقيا فى ذلك الوقت يتذكرون تلك الأيام وأغلبهم لا يتذكرونها البتة.

إن الحقوق فى هذه المسألة بين الأطراف المتعارضة لم تكن مفهومة، ولم يضيّع الألمان أية فرصة هنا أو فى المستعمرات المجاورة لإظهار الأهالى فى أسوأ صورة، ولو كانت عرفت هذه الحقائق كما هى معروفة الآن بفحص دقيق للبينات الموثقة ولشهادات الأحياء التى تؤكدها، فقد كان ثمة احتجاج يوجه إلى ألمانيا من القوى الأخرى. ومن المعروف أن الجرائم التى ارتكبت تسربت أخبارها من ألمانيا عام ١٩٠٥م؛ ونتيجة لذلك فإن القوانين والاتفاقيات الخاصة بالأهالى وحقوقهم

أذيعت ونُشرت ، ولكن الحالات التى حصل فيها الأهالى على حقوقهم المقررة لهم بمَوجب هذه القوانين وجدت وإن كان عددها قليلاً جدًا .

إن السلطة التى خولت للموظفين الصغار جلد الأهالى وتقييدهم بالسلاسل ، بلغت أقصاها من الناحية العملية ، فكان لكل عضو فى قوة البوليس تطبيقها حتى فى حالات المخالفات التافهة بناءً على شكوى السادة ، ومن المعروف أن حالات عديدة من الاغتصاب قد ارتكبت ضد نساء الأهالى ومعظمها لم يضبط أو ترك بغير عقاب .

وقد ترك الأهالى فى حالة من حالات الخوف الدائم ، ولم يجدوا فرصة للإفلات من هذا الشعور ، ولم يكونوا يجرءون على الذهاب إلى الشرطة بشكاواهم ، وكانوا يجردونهم من ماشيتهم ومن أراضيهم كما حدث فى انتفاضة ١٩٠٤م ، وكان القانون يمنعهم من حيازة مخزون كبير ويجردهم من الاحتفاظ بوسائل عيشهم ، وكانوا يجبرون على قبول العمل بأجر غير ملائم بالمرة وكثيرًا ما كان لا يؤدى ، وكان السادة ينظرون إلى الخدم الأهالى باعتبارهم عبيدًا مجردين من أية حقوق ويتعرضون للجلد ، وكان الخدم ينظرون إلى السادة الألمان ، باعتبارهم أعداء لا مهرب منهم .

كان هذا هو الوضع الذى وجدته فى يوليو ١٩١٥ م عندما عهدت إلىّ مهمة انتظام الأعمال فى هذه المحمية ، وقمت بتأمين وتأسيس علاقات أحسن بين البيض والسود وهو ما كان مطلوبًا . إن كل الأحكام السيئة فى القوانين الألمانية التى تخص الأهالى راجعتها واستبدلت بها القوانين والأعراف المعمول بها فى اتحاد جنوب إفريقيا .

وجدت أن الرغبة فى توقيع العقوبات البدنية القاسية على الخدم من الأهالى قد استبقاها بشكل قوى ملاك المزارع الألمان ، ورغم أنها قد قلت نتيجة للأحكام الصادرة من محاكمنا فإن الحالات التى كانت تحدث بصراحة كانت كثيرة جدًا .

وبسبب اتساع رقعة هذه البلاد وانتشار المزارع وبعثرتها وسوء معاملة الأهالى فإن الرعب قد سيطر عليهم ، ومن ثم لا يستطيعون أن يتقدموا بشكاواهم ؛ لذلك فثمة حالات كثيرة لا تصل إلى المحاكم .

إن الأهالى الآن وقد تحرروا من القمع الذى عانوا منه ٢٥ سنة قبل سيطرتنا على

هذه البلاد ، وبطريقتهم البسيطة فى التفكير لم يستطيعوا أن يفهموا لماذا بعد هزيمة الألمان لم نأخذ منهم أراضيهم ، وسبب هذا الكثير من الصعوبات للإدارة .

إن الأهالى بعد المعاملة السيئة التى خضعوا لها من أرباب عملهم السابقين صارت أعداد كبيرة منهم رافضين قبول العمل وغير متحمسين له ، وصار الأمر يحتاج إلى كثير من الصبر لتعليمهم ضرورة أن يعملوا لكى يحيوا ، وأن الحريات التى يتمتعون بها الآن تحملهم بالتزامات عليهم ، وأنه فى حين أن موظفين يقدمون الحماية لهم جميعًا ويساعدون كل عامل لضمان حسن معاملته وحصوله على الأجر المناسب ، فإن عليهم أن يقدموا العمل بشكل حقيقى .

وإن الأحكام التى استسلمت لها القوات الألمانية فى جنوب غرب إفريقيا فى يوليو ١٩١٥م ، تذكر الأهالى المدنيين واحتياطى الجيش بأنه يتعين أن يسمح لهم باسترداد أعمالهم الطبيعية ، وظهر فوراً على طول المحمية طلب قوى على العمالة المحلية .

إن السياسة المحلية الجارية الآن تعتمد أساسًا على ما جرى فى الترانسفال (فى جنوب إفريقيا) ، وطبقًا لها ومن أجل تقليل حالات التشرد والجرائم بين الأهالى ، كان يجب النظر إلى كل من هو قادر جسمانيّا من الأهالى أن يكون له عمل ما .

لقد كان هناك ميل قوى فى حالات كثيرة لإعادة الارتباط بالسادة السابقين ، ولكن الرفض كان واضحًا .

إن معرفة أننا لا نقبل إساءة معاملة الأهالى وأن محاكمنا لا تفرق عندما يرتكب عدوان ما بين الأبيض والأسود ، هذه المعرفة انتشرت بالتدريج ، وقد صاحبها حقيقة أن الأحكام العقابية الشديدة قد فرضت على الأوروبيين بين حين وآخر فى حالة عدوانهم على الأهالى ، وعندما ظهر ذلك فى الضوء وضح للأهالى أن الحالة صارت أحسن من سابقتها ، رغم أنه لايزال هناك قصور فى العمل الذى يرجى أن يكون كاملاً من الأهالى الموجودين .

إن شركات التنقيب عن الماس فى لدرإتزبخت من ١٩٠٨ ـ ١٩١٤ م استوردت آلاف العمال الملونين من رأس الرجاء الصالح بنفقة باهظة وبأجور عالية ؛ لأن المحمية لم تكن قادرة على أن تمدهم بالعمل الكافى من داخل الحدود . **ثم إنه بعد مرور عدد قليل من السنوات ضُحى بقسوة بحياة نحو ٩٠ ألفًا من الأهالى .**

ولا داعى للقول إن السياسة الأهلية الحالية معترض عليها بشدة من المستوطنين الألمان فى هذا البلد، ويقال بصراحة ووضوح عن المزارعين الألمان: إن بقاءنا المستمر فى هذا البلد يمكن أن يكون محتملاً إذا تغيرت سياستنا الأهلية إلى ما يلائم آراءهم. إنهم يعترضون بشدة على أية قيود تُفرض على حقهم فى ممارسة العقاب حيثما يشاءون، وبعد مرور بضعة شهور من وجودنا فإن طلبات عديدة كانت تأتى تباعًا من الألمان؛ ليستردوا أسلحتهم النارية التى سلموها من قبل بحجة الدفاع عن أنفسهم فى مواجهة الأهالى.

وفى نوفمبر ١٩١٥م نجد أن شائعات محذرة أطلقها الألمان حول أن ثمة انتفاضة يقوم بها الأهالى وأن حياة أى أوروبى لم تعد آمنة، وكنا نحاط بمشاعر التوتر من كل جانب لتأمين حماية الناس. وقد أظهرت الأبحاث الموثوق بها أنه لا يوجد ظل من الحقيقة فى هذه التقارير، وإنى استطيع القول إن هذه القصص قد نشرت عن عمد لإجبارى على إعادة الأسلحة النارية لمن أخذت منهم؛ وذلك ليهددوا بها خدمهم من الأهالى.

وفى المحاكم الصغيرة عرضت قضايا لا يقل عددها عن ٣١٠ قضية عن سوء معاملة الخدم الأهالى من جانب سادتهم، وقد قضى فيها بتوقيع العقاب منذ إنشاء هذه المحاكم فى ٢٠ سبتمبر ١٨١٥م.

إيذاء نساء الأهالى

ثمة سمة أخرى هى محل اعتراض شديد فى النسيج الاجتماعى للمحمية، تظهر أن الألمان كان لديهم علاقات فاسقة بين الرجال الأوروبيين من العساكر والجنود والشرطة وغيرهم، وبين النساء المحليات، بصرف النظر عن اعتراضات تتعلق بممارسات تجرى بين هؤلاء النساء وأقاربهم من الذكور.

إنه مع تدمير نظام القبيلة بعد أحداث ١٩٠٤ـ١٩٠٥م، وتوزيع ما بقى على قيد الحياة من الأهالى، بوصفهم عمالاً لدى المستوطنين الأوروبيين، أجبرت النساء بأعداد كبيرة على أن يصرن محظيات للأوروبيين، مع النتيجة الحتمية لذلك وهى أن الأهالى صاروا يشعرون بالازدراء لسادتهم الذين صمموا على استبقاء مراكزهم بسياسة القسوة والعنف البالغ.

وإن الألمانى فى جنوب غرب إفريقيا باعتباره مستعمراً قد فشل بشكل عام فى أنه

لم يظهر أبدًا استعداداً لكى يتعلم ويتفهم وجهة نظر الأهالى، ويتعرف على الأفكار والعادات والتقاليد الخاصة بالشعب.

وعندما وصل الألمانى إلى هنا وجد الأهالى أغنياء وأنهم كثيرون، وبدا أن غرضه الوحيد- بقدر ما يكون قويّا - أن ينتهز كل فرصة ممكنة ، ويستغل بساطة هؤلاء الناس ليستغلهم تمامًا.

وعندما تبين له أن هذه العملية لم تتم بالسرعة اللازمة بدأ عمليات القتل والتدمير؛ مما أنتج الكوارث التى نراها حولنا الآن.

إن ذلك غريب عما هو فى رأس الرجاء الصالح ومستعمرة «ناتال» فى مستعمرة جنوب إفريقيا. فإن المستوطنين الألمان أثبتوا جدارتهم، وفى كل أحداث السنوات الماضية أثبتوا قدرتهم على التلاؤم والنجاح بوصفهم مستعمرين؛ لعل السبب فى ذلك نجده فى حقيقة أن فى هذه الممتلكات البريطانية وجد المهاجر الألمانى نظامًا محددًا واضحًا ومفهومًا يجرى بين الأوروبيين وبين السكان الأصليين البدائيين.

ولكن الألمانى باعتباره رائدًا فى هذه الأراضى الهمجية، وبدون التأثير والنصيحة اللذين يقدمهما أناس من جنسيات أخرى لديهم خبرات استعمارية طويلة، بغير ذلك فقد أثبت بنفسه فى كل وقائع جنوب غرب إفريقيا أنه غير قادر وغير مناسب على الإطلاق.

الأرض

إن الأرض هنا، عندما تقرر استعمارها بالشكل الأكثر ربحية، وبعد أن وزعت البعثات والشركات والتجار فيما بينهم الحصص المنتقاة، بعد كل ذلك أعطيت الأرض والجزء الأكبر مما بقى للجنود الذين عبّروا عن رغبتهم فى الاستيطان هنا، وقد كانوا رجالاً غلاظ الأكباد، وعندما أطلق سراحهم من المؤسسة العسكرية التى دربوا فيها، فقد حملوا معهم إلى ممتلكاتهم الجديدة وسائلهم العسكرية وأفكارهم العدوانية تجاه الأهالى الذين كانوا يحكمونهم أثناء وجودهم بالخدمة العسكرية.

وإن الشرطة أيضًا جلبت من الظروف نفسها ومن التنظيمات نفسها بغير اختلاف، وإذا كان هناك اختلاف فهو الأسوأ؛ لأنهم اختيروا فى الأساس من أكثر عناصر الجيش اتصالاً بالقسوة.

وبعد ذلك فعندما انتهى هذا العمل ظن الجهاز الوظيفى فى برلين فى نفسه أنه إزاء أرستقراطية استعمارية ألمانية، وقد قيل محليّا: إن القيصر كان لديه اهتمام شخصى بهذه المسألة، وأنه بفضل نفوذه وُجد هذا العدد الضخم من الأشخاص ليستوطنوا فى أحسن المناطق فى هذه المحمية.

وإذا صدّق الإنسان القصص التى كانت تروج بين الأقل حظّا من الجالية الألمانية حول إخوانهم الأكثر تميزًا، فلم يكن بين هؤلاء المتميزين أى نسبة محترمة من الأشخاص الحائزين على الأوسمة والنياشين.

الحاكم ليتوين

إنه من المثير للاهتمام قراءة ما ذكره «ليتوين-Leutwein» (وكان حاكمًا بهذا الإقليم إحدى عشرة سنة) حول محاولة ألمانيا إنشاء المستعمرة. ففى الكتاب الذى نشره بعد استدعائه لألمانيا أشار إلى بدايات السياسة الألمانية المعتمدة فى محاولة تطويع السكان الأصليين حسب مصيرهم، يقول:

لقد ساعدت فعليّا فى تقرير هذه السياسة التى نُفذت بإجماع إزاء السكان الأصليين؛ وذلك لسبب يرجع على الأقل إلى الحرب مع ويت بووى التى فتحت عينى فى البداية الأولى للنشاط الاستعمارى، فيما يتعلق بالصعوبات التى ظهرت عند قمع الانتفاضات الأهلية فى جنوب غرب إفريقيا.

ومنذ ذلك الوقت فقد استخدمت أكثر مساعى لجعل القبائل الأهلية تخدم هدفنا، وأن نوقع الواحدة منهم ضد الأخرى. وحتى السياسة المغايرة لذلك كانت تبدو أكثر صعوبة، ولكنها تكون أيضًا خادمة لأهدافنا وللتأثير على الأهالى؛ لكى يقتل بعضهم الآخر، وهذا أنفع من أن نتوقع تدفق الماء والدماء من بلدنا الأم لقمعهم. إن هذه السياسة ثبت استحالة تنفيذها بغير عوائق، ولكن ذلك أخف وطأة علينا من ألا تتبع أصلاً.

وفى هذا المجال مما يلفت النظر تتبع الإمبراطورية البريطانية فى العالم، إن إحصاء السكان فى الإمبراطورية البريطانية ١٩٠١م والنتائج التى نشرت قبل الآن بقليل يكشفان عن أن قرابة ٤٠٠ مليون خاضع لملك انجلترا منهم ٥٤ مليونًا فقط من

البيض بنسبة ٥ ,١٣ ٪ ، وهذا العدد هو أقل من عدد المحكومين البيض فى الإمبراطورية الألمانية . وإنه مما يستحق الدراسة هو كيف أمكن لـ ٥٤ مليونًا فقط من البيض من الإمبراطورية البريطانية أن يسيطروا على ٣٥٠ مليونًا من الأهالى . ويبدو مستحيلاً أن هذا ممكن أن يتم بواسطة ما تفرضه الشرطة من قوة وقمع . إن الافتراض الوحيد الباقى هو أن البريطانيين فهموا أكثر منا كيف يجذبون الأهالى للاهتمام بالقضية البريطانية ويجعلونهم خاضعين لهم .

ويبدو أنهم طبقوا نظمًا مختلفة تمامًا طبقًا لطريقتهم فى استعمار الأقاليم وسكانها ، ونحن نعرف مثلاً أن مستعمرة رأس الرجاء وهو البلد الذى حدث فيه عدد من الهبات الأهلية وقمعت ، وأثار ذلك من الصعوبات مثلما أثير عندنا فى جنوب غرب إفريقيا ، ولكنهم كانوا يعتبرون الأهالى مواطنين كاملى المواطنة . فعندما لا تنفذ قبيلة من قبائل الأهالى القوانين والنظام مثل «كوراناس-Korannas» فإن البريطانيين يدمرون هذه القبيلة بقواتهم المسلحة ، ولكنهم لا يفعلون ذلك بغير مساعدة القبائل الأهلية الأخرى ، وقد تخلصوا من مشاكسة قبائل «الهوتنتوت-Hottentot» بواسطة الهجرة إلى محمياتنا . وفى باسوتولاند حيث تستقر قبيلة ذات طابع عسكرى فى بلد جبلى ، فإن الإنجليز يكتفون بالحكم الاسمى حتى يمنعوا أى قلاقل ، وهم بذلك لا يجيزون هجرة البيض إلى هذا البلد .

فى الحقيقة أن كل ذلك يتطلب فهمًا خاصًا للعادات والتقاليد الخاصة بالأهالى إذا كان الجنس الأبيض يعمل على أن يبقى سيدًا فى بيته الخاص تحت ظروف متنوعة كما يحدث فى الإمبراطورية البريطانية .

وما لم تفهم أمة هذا الفهم ، فعليها أن تترك الاستعمار جانبًا ؛ لأنها لن تستطيع أن تتذوق طعم البهجة هناك .

ويوجب الإنصاف علىّ أن أقول إن ثمة استثناءات ملحوظة على القاعدة العامة التى رأيناها هنا ، إن هناك من الرجال الذين تحلوا بالاهتمام الذكى الجاد فى سلوكهم وفى اهتماماتهم برخاء الأهالى وتعاملوا مع الأهالى بشكل معقول ، ولكن عدد هؤلاء طبقًا للمعلومات التى لدىّ يعتبر قليلاً نسبيًا . وإنه من الصعب أن يستأصل الأثر السيئ للمغامرين الذين سيطروا على سياسة هذا البلد فى الأيام الأولى لتأسيس النفوذ الألمانى .

ويوجد فى هذا التقرير الكفاية لإقناع من يلتزمون الشك حول عدم ملاءمة الألمان للسيطرة على الأهالى، وكذلك لكى نظهر لهم ما يمكن أن يتوقع إذا كان هؤلاء الأهالى البؤساء فى هذا القسم من إفريقيا قد أعيدوا من جديد إلى النظام السابق.

ومن أجل آلامهم ومن أجل نصيبهم فى إذاعة المعلومات التى جمعت هنا، فإن هؤلاء الذين أشير إلى أسمائهم وإلى زملائهم سيكونون أناسًا مستهدفين؛ وذلك إن لم يكونوا قد صاروا كذلك فعلاً، وأن إزاحتهم ستصير مسألة وقت فقط.

إن الرأى المحلى هنا هو بالإجماع ضد أى فكرة للعودة تحت رحمة الألمان، وإن أى اقتراح باحتمال فعل من هذا النوع من جانب بريطانيا العظمى سيقابل بأقصى اعتراض.

وقبل الانتهاء من الملاحظات الواردة فى هذه المقدمة، فإنى أرغب فى التعبير عن التزامى تجاه من جمعوا هذه المادة والإشارة إليهم، فإن مخطط الجزء الأول هو الميچور« ت. ل. أوريلى– T.L.Oreilly» المدعى أمام المحكمة العليا بجنوب إفريقيا وإقليم الترانسفال والحاكم لمحميه الأمارورو. إن الميچور أوريلى كان يمارس عمله الرسمى هنا خلال السنوات الثلاث الماضية، وهو على علم بهذا البلد وسكانه.

والقسم الثانى أعده مستر «ووترز– A.J. Waters» المدعى فى هذه المحمية الذى أقام هنا منذ أكتوبر ١٩١٥م.

إن كُلاّ منهما أنجز المهام الموكلة إليه باهتمام بالغ، وفى الخطوط التى رغبا فى أن تسير فيها، ومارسا الإشراف العام على العمل، وإن أية قيمة لهذا التقرير إنما ترجع إليهما.

إمضاء

المدير

E.H. Gorges

مقر الحكم وندهوك جنوب غرب إفريقيا فى ١٩ يناير ١٩١٨م

* * *

بعد المقدمة التى كتبها «چورچس» الحاكم البريطانى الإدارى لمستعمرة جنوب غرب إفريقيا، هذه بعض المقتطفات من فصول الكتاب التى تشير إلى كيف بدأ الاستعمار الألمانى، وكيف كان يسوس الأهالى، وهى السياسة التى أدت إلى ثورة الهيريرو وإبادتهم فى المستعمرة الألمانية.

كان التجار وبعثات التبشير دائمًا يمثلون الطلائع المتقدمة فى تمهيد الطريق للنفوذ الألمانى للإلحاق والحكم. وثمة كلمة من الكلمات المأثورة للأمير بسمارك وهى «**إن المبشر والتاجر يجب أن يسبقا الجندى**». وفى هذا النظام كانت جنوب غرب إفريقيا نموذجًا فريدًا.

فى عام ١٨١٤م أرسلت الحكومة البريطانية فى رأس الرجاء الصالح «ڤون شميلن–Von Schemelen»، وهو مبشر ألمانى ليقوم بأعمال التبشير بين الهوتنتوت الذين يعيشون عبر نهر أورانج فى ناماكوالاند الكبرى. واستقر «ڤون شميلن» فى«بيثانى–Bethany» ثم بعد ذلك ارتبط بالهوتنتوت تحت قيادة «چاچر أفريكانر–Jager Af ricane» وسار معهم إلى الشمال. جعل ڤون شميلن من چاچر أفريكانر أركان حرب فى جنوب دامارالاند، وسميت القرية التى أقام فيها باسمه «رجا شميلن» على شرفه، واتخذ فتاة من الهوتنتوت زوجة له، وصار عضوًا ذا نفوذ فى القبيلة.

وبعد أن استقر ڤون شميلن بشكل أكيد، يبدو أنه نسى كل شىء يتعلق بالحكومة البريطانية فى رأس الرجاء (الكاب)، ووضع نفسه فى اتصال مباشر مع برلين. وكانت تقاريره عن البلاد وأهاليها تصل ألمانيا الحين بعد الحين، ونتج عنها انجذاب بعثات التبشير الألمانية إلى جنوب غرب إفريقيا.

وفى عام ١٨٤٠م بدأت جمعية تبشير «رينش–Rhenish» فى برلين تهتم بشكل رسمى بهذا الحقل الجديد من حقول العمل التبشيرى والاستثمارى.

وفى عام ١٨٦٧م توطدت مراكز تبشير مزدهرة فى ناماكوالاند الكبرى ودامارالاند (أرض قبائل الهيريرو والهوتنتوت).

وكان على أفراد هذه الإرساليات أن يؤمنوا حاجاتهم لأنفسهم ولعائلاتهم، ولم

يكونوا يستطيعون ذلك إلا بالمزج بين النشاط الدينى ونشاط الأعمال. وطبقًا لذلك وجد أنه من الضرورى إنشاء محال مرتبطة ومتصلة لكل مراكز التبشير؛ لينفقوا من أرباحها على أنفسهم، وكان الأهالى الإفريقيون يحصلون على السلع والملابس والسلاح والذخيرة والحلوى، بمبادلة ذلك كله بقطعان الماشية والأغنام ومنتجات الحقول.

هذا المزج بين أعمال التجارة والنشاط التبشيرى، قدر أن يكون له أفعل النتائج الروحية بالنسبة للأهالى البسطاء، وكان التقدم بطيئا، ومضى نحو ثلاثين عامًا من التبشير ومن التجارة قبل أن يتحول إلى ديانتهم أول هيريرو، وهى سيدة عجوز هجرت عبادة أسلافها وقبلت أن تعمد بالمسيحية.

وعندما توسع العمل التبشيرى للإرساليات بتأسيس مراكز جديدة للبعثات التبشيرية، استتبع ذلك كنتيجة طبيعية أن المنجزات فى المجال التجارى قد توسعت هى الأخرى وبذات النسبة، وفى الحقيقة فإن حجم المكاسب الدنيوية قد اتسع أكثر كثيراً من الناتج الدينى لهذا النشاط.

وفى ذات الستينيات من القرن التاسع عشر بعد عشر سنين أو اثنتى عشرة سنة من بدء نشاط بعثة رينش، كسر الاحتكار بدخول تجارة الماشية من مستعمرة الكاب من الجنوب. وهؤلاء الوافدون الجدد لم يكن لديهم محال محددة، وكانوا يمرون على الأهالى بالعربات التى تجرها الثيران ويبيعون البضائع أو يستبدلون بها غيرها ويتسلمون الغنم والماشية بربح طيب فى أسواق المنافسين من التجار الإنجليز، وفضلا عن ذلك لم تكن هذه المنافسات من مبشرين قريبين منهم.

* * *

المستعمرون الحقيقيون

فى ١٨٦٠م أو نحو ذلك نمت المنافسة بشكل حاد بين بعثات التبشير وقررت بذل ما فى وسعها لإقصاء معارضيها. كان التاجر الآتى من الكاب يتميز بوسيلة نقل العربات التى تجرها الثيران، ولكن هذه المزية قد حيدت إلى حد ما أو فقدت فائدتها؛ بسبب بُعد المسافة بين الأسواق الخاصة بالتاجر، واستحالة استبدال العجلات التى تتلف فى الصحارى والأحراش.

وكانت البعثات إذا استطاعت أن تبنى أو تستبقى نوعًا من الصيانة الجيدة للعربات بشكل كاف، وتقديم المعونة والمدد للعدد اللازم من التجار الذين يقومون بالعمل، فإنها تكون قد كسبت نصف المعركة، وبهذه الطريقة صارت أعمال السرقة والأعمال غير القانونية للتجار الإنجليز يمكن تحديها.

وفى هذا السياق بدأ النشاط التبشيرى يقترح أنه بالإضافة إلى تحويل الأهالى إلى المسيحية أنه يتعين تعليمهم التجارة والحرف المفيدة. وقد نشطت جمعية متعاطفة بدأت نشاطها فى دعوة الحرفيين الألمان إلى الهجرة من ألمانيا مع عائلاتهم والتوطن فى «أودنج بجوى»، حيث يوجد مركز قيادة التبشير. ويمكن القول إن: الحدّاد وصانع العربات الآتيين من مدن ألمانيا كانا أول المستعمرين الحقيقيين الذين ينشدون الربح باستغلال الأهالى، وكانوا رجالاً أتوا بالمطرقة والسندان فى أيديهم وهم مستعدون لكسب معاشهم اليومى بعمل أيديهم.

فى هذا الصدد بنيت العربات، ثم وجد أنه من الضرورى أن يتاح للمستعمرين أن يسافروا مع العربات المحملة بين الأهالى، ويقوموا بالتجارة المضادة المنافسة لتجارة الكاب، وذلك تحت رعاية ومباركة جمعية بعثة رينش.

وتسجل تقارير البعثة التبشيرية أن هؤلاء قد باعوا كل المنتجات التى كان يبيعها التجار الإنجليز فيما عدا الكحوليات. ولكن بقى لتجار الكاب مزية أنهم يحصلون على الماشية ويبيعونها فى سوق مدينة الكاب.

اضطهاد الهوتنتوت

كان عدد هؤلاء البيض قليلاً ولكنهم كانوا أصحاب نفوذ واسع؛ لأنهم يوردون السلع الحديثة ويمثلون نفوذًا جديدًا لعالم كبير له نظمه القوية المخالفة لنظم الإفريقيين. **وكانت سياسة ألمانيا وغيرها من المستعمرين البيض هى تأليب الأهالى على بعضهم البعض؛ فيثيرون قبيلة ضد أخرى ويعدون بمساعدتها حتى إذا فازت بالنصر انقلبوا عليها بعد أن تكون أخضعت الأولى.**

وكانت الظروف فى إقليم جنوب غرب إفريقيا مهيأة لذلك، فأكبر قبيلتين وهما

الهوتنتوت والهيريرو كانتا فى صراع دائم من أجل الرعى والماء، وطالما اندلعت بينهما الحروب القبلية، تغير إحداهما على الأخرى وتنتصر عليها، ثم ما تلبث الأخرى أن تسترد النصر من الأولى وهكذا.

وقد وجد الألمان فى قبائل الهيريرو غايتهم فدفعوهم لدخول الحرب ضد الهوتنتوت، وكان يقود الهيريرو فى المعركة التجار الإنجليز «فردريك جرين» و«هاى بيتل» والرحالة «أندرسون» الذى اشتغل بالتجارة وتقرب من الهيريرو حتى حصل على وظيفة نائب الزعيم والقائد العسكرى، استطاع هؤلاء هزيمة الهوتنتوت واستعاد الهيريرو أراضيهم واستقلالهم الذى كانوا فقدوه جزئيّا من الهوتنتوت على مدى ٢٥ عامًا. وقد قابل الهوتنتوت هذا التدخل الصارخ لصالح الهيريرو باشمئزاز وأدانوا التدخل الفعّال لجرين وغيره من التجار البيض، وسرعان ما أغاروا على حانوت أندرسون ونهبوه هو ومقر بعثة التبشير، وذهب ممثلو البعثة إلى برلين يلتمسون الحماية.

طلب هؤلاء من ملك ألمانيا إنشاء مقر بحرى فى «خليج ولفش ـWalfish Bay»، وأكد الملك للمبشرين أنه مهتم بهذا الأمر جدّا، ولكن اندلاع الحرب البروسية الفرنسية فى ١٨٧٠م صرف الانتباه عن هذا الأمر فترة ما.

استحث هذا الوعد البعثة التبشيرية على استعادة إنعاش مصالحها فى الأنشطة والمغامرات التجارية، وعينت تاجرًا خاصّا لتجارتها باعتبارها فرعًا من بعثه رينش. ويبدو أن هذا الأمر لم يكن مقبولاً من السلطة الألمانية؛ لذلك أنشأت شركة محدودة كجهاز مستقل فى ألمانيا ١٨٧٣م، بهدف التجارة فى مجال النشاط التبشيرى لجمعية المبشرين رينش.

وتعهدت الجمعية أن تكفل للشركة كل المساعدات والدعم الممكن، وفى مقابل ذلك تتسلم ٥٠٪ من صافى الشركة. ووُضع شرط فى الاتفاق يتعلق بنوعية اختيار من يرسل بهم من قبل الشركة، باعتبارهم مديرين أو تجارًا بأن يكونوا ذوى صلة بالتبشير المسيحى.

obeikandl.com

كان الهدف الأساسى للشركة هو تطوير الأعمال الخاصة بالماشية وفتح طريق للتصدير إلى أوروبا . ولكن بسبب الصعوبات التى واجهت النقل وبسبب فقدان الكفاءة وبسبب عدم الأمانة من ذوى العقل المسيحى الذين تولوا إدارة الأعمال، تكبدت الشركة خسائر باهظة، قدرت خسائرها فى ست سنوات بنحو ٢٠٠ ألف مارك، وهى تساوى وقتها عشرة آلاف جنيه استرلينى . ثم كان نشوب الحرب من جديد فى ١٨٨٠م بين الهيريرو والهوتنتوت ؛ مما حطم كل الآمال وعجل بإنهاء المشروع وصُفيت الشركة بعد ذلك .

السيطرة على الأرض

فى هذه الفترة وقع حدث كانت له أهمية كبيرة، ففى ١٨٧٦م زار المفوض البريطانى مستر «پالجريف – W.C.Palgrave» إقليم جنوب غرب إفريقيا ؛ وذلك ليتحقق من الرغبات التى يبديها الرؤساء المحليون بالنسبة لسيطرة بريطانيا العظمى، وليعد تقريراً لحكومة الكاب حول مدى الاهتمام بهذه المستعمرة وما حدودها على الشاطئ الغربى للقارة الإفريقية لكى تشمل خليج ولفش ومدى تكلفة ذلك .

استقبل پالجريف استقبالاً طيبًا من شعب الهيريرو وسلموه فى ٩ سبتمبر ١٨٧٩م خطابًا موجهًا إلى السيد «هنرى باركلى» الحاكم العام البريطانى لرأس الرجاء الصالح (الكاب)، موقعًا من ٥٨ من الرؤساء والزعماء، تضمن الخطاب فيما تضمنه ما يلى :

«نحن نريد أن نعيش فى سلام مع بعضنا البعض ومع جيراننا، كما نود أن تبقى بلادنا وأطفالنا، نحن نرغب فى أن يشب أطفالنا متحضرين أكثر منا وأكثر مما أتاحت لنا الظروف، ولذلك وبعد العديد من الاجتماعات التى عقدناها بيننا، فنحن نقبل بخضوع كبير أن نطلب من سعادتكم أن ترسلوا لنا من يحكمنا ويكون على رأس بلادنا . وإننا نطالب سعادتكم بمزيد من الخشوع أن تعلموا الكافة بأن سواحلنا وحدودنا الساحلية صارت فى حيازتكم، وأننا منحناكم الحق فى البقاء فيها وفقًا لمتطلبات حمايتها، وكذلك لبناء المدن والقرى قرب كل الأماكن المناسبة» .

بعث مستر پالجريف إلى الحاكم العام فى الكاب بالخطاب، وأوصى أن تلحق بالأراضى البريطانية كل سواحل ناما كوالاند ودامارالاند، وأن يتم تعيين مقيم بريطانى لهذه المناطق، ولكن لم تأخذ الحكومة البريطانية بهذه النصيحة وألحقت بها فقط خليج ولفش فى عام ١٨٧٨م، وبضعة أميال مربعة من الصحراء القريبة من الخليج.

استفاد المشروع الاستعمارى الألمانى من تقاعس الإنجليز، وكانت الخطوة المهمة التالية التى اتخذها هى مد النفوذ الألمانى والسيطرة على ما لم تضمه إليها بريطانيا العظمى. وكان التجار الألمان أول من نشطوا فى ذلك من أمثال «لودريتز-Luderitze».

تدعم نشاط التجار المبشرين بالتدريج بواسطة التجار المحترفين، وتدعم أيضًا العمل لبناء التجارة الألمانية والنفوذ الألمانى وللتخلص من بريطانيا والبريطانيين. وقد وصفت هذه الفترة من ١٨٨٠م- ١٨٩٠م بفترة إدارة التجار.

لم يستدع الأمر وقتًا طويلاً لكى يكتشف التاجر الألمانى لودريتز أنه بعد خليج ولفش يوجد خليج آخر فى إنجرابكويتا (يسمى الآن باسم التاجر لودريتزبخت)، وأنه أحسن مكان على الساحل بين نهرى الأورانج و كونين.

وفى أغسطس ١٨٨٣م استطاع لودريتز أن ينتزع من رئيس الهوتنتوت حق إدارة المنطقة التى تقع بين خطى عرض ٢٦ جنوبًا ونهر أورانج، ويحدها البحر من الغرب ويحدها من الشرق خط يجرى على بعد ٢٠ ميلاً داخل البلاد من الشمال الجنوبى.

وفى عام ١٨٨٤م زار جماعة من العلماء والباحثين الألمان ناماكوالاند ودامارالاند، ونقبوا عن المناجم وعن الإمكانيات الخاصة بالمناجم والزراعة هناك.

وفى السنة نفسها أرسل المستشار الألمانى الشهير الأمير بسمارك برقية برفع العلم الألمانى على هذه الأراضى، ووضعها تحت حماية الإمبراطورية الألمانية.

بدأ لودريتز يتمادى فى نشاطه وشجعته هذه السياسات المتبعة والاعتراف بالوجود الإمبراطورى فى هذه المنطقة، فقام بعملية شراء حقوق الملكية فيما تبقى

من الساحل من خط عرض ٢٦ جنوبًا إلى رأس فريبو بالقرب من ثغر كونين وطولها نحو ١٠٠ ميل إلى الجنوب، وهذه الاتفاقيات كانت مطلوبة بقصد إقناع المستثمر الألمانى بأن يشارك فى مشروعات لودريتز.

ذهب لودريتز إلى ألمانيا مسلحًا بهذه الوثائق، حيث نجح فى سنة ١٨٨٥م فى أن يقيم شركة تسمى «الشركة الاستعمارية الألمانية لجنوب غرب إفريقيا» برأس مال قدرة ٣٠٠ ألف مارك (١٥ ألف جنيه استرلينى) وهى غير الشركة الغنية المسماة بـ «الشركة الاستعمارية الألمانية».

وقد ذكر علنًا فى ألمانيا - فى ذلك الوقت - أن مساهمى الشركة تحركوا بدافع من الوطنية، باعتبار أن ذلك البلد الذى يمكن أن تظهر أهميته فى المستقبل يتعين ألا يمضى فى أيدى قوى أجنبية، ولا يكاد يذكر العمل الاستعمارى الفعلى والبناء الذى أجرته هذه الشركة برأسمالها الضئيل البالغ ١٥ ألف جنيه استرلينى لسبب بسيط هو أن لا شىء قد تمّ.

والحقيقة أن الفكرة المجردة لعمل شىء جوهرى لفتح بلد مثل جنوب غرب إفريقيا بمثل هذا الرأسمال الصغير هى شىء عابث وهزلى، كمن يريد أن ينقل ماء البحر بدلو. وإن كل ما فعلته هذه الشركة منذ تأسسها حتى ١٩٠٧م هو أن تحصل على حقوق التنقيب، وأن تنتظر ما يأتى من بعد وتكون مستعدة أن تنفق الأموال لاستغلال المناجم.

وأيّا ما كان الأمر، ففى أكتوبر ١٨٨٥م بعثت الحكومة الألمانية مراقبًا حكوميًّا للشركة الحديثة التكوين هو الدكتور «جورنج» بصحبة أحد رؤساء الشرطة. وكان جورنج يمثل نوعًا من الوكيل التجارى ذى سلطات محددة بالنسبة للمقيمين الألمان فى هذه البلاد، ولكن لم تكن لديه سلطة بأن يعد بأن يحمى الأهالى الألمان.

وشرع د. جورنج فى اتخاذ إجراءات حماية الاتفاقات بمساعدة المبشر «كارل بتنر - Carl Buttner»، وحماية الرؤساء المحليين الذين يتقاتلون فيما بينهم، وفى مقابل هذه الحماية طلب من الرؤساء المحليين أن يعطوا لألمانيا مزية الدولة الأولى بالرعاية، وأن يتعهدوا بألا يعطوا تسهيلات أو حقوقًا لغير الألمان بغير موافقة الإمبراطور. وكان من هؤلاء كماهيريرو رئيس الهيريرو والأوكاهنجا القائد

الرئيسى للهيريرو فى داماراالاند الذى انضم إلى الاتفاقية فى ٢١ أكتوبر ١٨٨٥م . وقد ذكر الحاكم الإدارى ليتوين أن هؤلاء الأشخاص الذين وعدوا بالحماية باسم إمبراطور ألمانيا لم يكن هناك أية إمكانية لتنفيذ ما وعدوا به .

جمهورية يوبنج تونيا

وفى السنة التى ارتفع فيها علم ألمانيا على داماراالاند، فإن رجالاً من الترانسفال ومن مستعمرى الكاب بقيادة المغامر البريطانى وليام جوردون، اشتروا كل المساحات الواسعة فى الشمال التى تعرف الآن باسم جروت فونتين اشتروها من رئيس الأوفامبولاند .

وفى جروت فونتين أسس جوردن ١٨٨٤م جمهورية «يوبنج تونيا–Uping Tonia» ووزع المزارع على المواطنين البيض، ووضع دستوراً وأجرى انتخابات وصار الرئيس الأول، وبالإضافة إلى حقوقه على الأرض، فإن جوردون حصل على حقوق شخصية على كل المناجم فى المنطقة الغنية بالمناجم، حيث يوجد الآن منجم نحاس «تسومب–Tsumeb» . وقد قوبلت مشكلة جمهورية جوردون باهتمام كبير وبحذر وعدم ثقة فيه، كما أثارت طموحات لودريتز وشركائه .

وعلى أية حال فقد حُلت مشكلة جمهورية جوردون باغتياله عندما كان فى رحلة إلى أوفامبولاند . ويقال إن رئيس الأوفامبو كان هو المسئول عن الاغتيال، وقد يكون هذا ما حدث أو لا يكون، فمن الصعب إثبات من هو المحرض، فالجميع كانت لديهم مصلحة فى إقصاء جوردون .

وبعد أن عرف مقتل جوردون، اتخذ د. جورنج خطوات لينصح أتباعه فى جروت فونتين أن إمبراطور ألمانيا لا يمكنه للحظة واحدة أن يحتمل فكرة وجود جمهورية على أراضيه .

وبناءً على تلك النصيحة فإن الجمهوريين الخائفين والمضطربين حملوا بضائعهم ومواشيهم وساروا فى كل الاتجاهات، بعضهم ذهب إلى الترانسفال والكاب، وبعضهم انضم إلى مستعمرة البوير فى هومباتا بانجولا، وكانت هذه هى نهاية جمهورية يوبنج تونيا .

التجار البريطانيون

من غير المتصور أن يكون التجار البريطانيون فى هذا البلد قد نظروا إلى عمل جوردون بلامبالاة، بل على العكس وُضعت العقبات فى طريق رجاله، وبذلت حكومة الكاب والتجار البريطانيون جهداً لتأمين النفوذ البريطانى أو لاستعادته على أمل أن تصير هذه البلاد من بعد تحت الحكم البريطانى. وكان يجرى تحطيم المشاريع والأطماع الألمانية، ليس فقط فى جنوب غرب إفريقيا، ولكن أيضًا فى كل جنوب القارة. كان الرجال البريطانيون فى الموقع يرون الخطر الألمانى واضحًا، ولكن ذلك لم يكن مفهومًا ولا مقدراً فى لندن.

أتت المتاعب لألمانيا من تاجر إنجليزى يسمى «روبرت لويس» يتذكره الهيريرو باسم بوبى لويس. ويؤكد الألمان أن لويس كان عميلاً ماجوراً لسيسل رودس (وهو أحد المستعمرين الذين أتوا إلى إفريقيا من انجلترا ودعموا النفوذ الإنجليزى فيها وإليه نسب إقليم روديسيا).

كان لويس ينشط فى التجارة بكثافة عبر دامارالاند وناماكوالاند الكبرى، وكانت له شعبية واسعة مع الأهالى ونفوذ ملحوظ مع الرؤساء المحليين. لم تكن التجارة هدفه الحقيقى، إنما كان الهدف الأساسى فى حياة لويس هو إقصاء الألمان من هذه البلاد.

وفى اجتماع لرؤساء وقادة الهيريرو فى أوكاهنجا، أبلغ الرئيس القديم للهيريرو فى حضور مستشاريه، أبلغ د. جورنج أنه لايعترف بأية ادعاءات ألمانية حول السيطرة على بلاده أو شعبه، وجعل جورنج ورجاله يفهمون أنه «إذا لم يكونوا يرغبون فى رؤية أيديهم تسقط على أقدامهم، فعليهم أن يخرجوا من أراضيهم وأن يعودوا إلى ألمانيا قبل غروب الشمس».

لم ينتظر د. جورنج ورجال الشركة طويلاً، فقد ابتعدوا فى عجلة وحزموا أشياءهم، وذهبوا إلى خليج ولفش فى حماية المقيم البريطانى.

ومن خليج ولفش استغاثوا بحكومة ألمانيا لتحميهم ضد إجراءات لويس الذى وصف بأنه عميل سيسل رودس فى البلاد، وأنه يتبع كافة الأساليب بلا خجل ويقوم بأنشطة وصفوها بأنها خطرة.

وقد أشير فى شهادة الحاكم ليتوين إلى أن لويس باعتباره تاجرًا إنجليزيًّا عاش طويلاً بين الهيريرو، وأنه منذ البداية يمثل أعنف عدو للألمان، وأنه أطلق الوعود للهيريرو وكل الأكاذيب بأن الهيريرو يدحضون المعاهدة التى سبق أن أبرموها مع د. جورنج وأن د. جورنج لم تكن لديه سلطة ليلزم التاجر الألمانى بأية معاهدة، وأن لويس باعتباره فردًا من الأفراد العاديين فإن له من الحقوق ما لجورنج للتأثير وللتعاقد مع الهيريرو.

وعلى العموم فقد طالبت الشركة وممثلو اللاجئين الألمان الإمبراطوريةَ الألمانية بالحماية العملية؛ لتتمكن الشركة من أن تسير فى نشاطها وتمارس حقوقها وتحقق مصالحها فى دامارالاند.

ورد المستشار الألمانى على هذه الاستغاثات بقوله: «إن هذا ليس من وظائف الإمبراطور، وإن هذا يظل بعيدًا عن البرامج التى تتبناها السياسة الاستعمارية الألمانية فى التدخل لصالح الدولة وإنشاء المنظمات بين الشعوب غير المتحضرة، أو استخدام القوة المسلحة لمحاربة المعارضة التى يقوم بها رؤساء الأهالى ضد الأعمال القائمة التى يديرها رعايا ألمان فى بلاد ما وراء البحار، وإنه لا يعطى وعدًا باسم الإمبراطور يتعلق بالتوجه السلمى فى عمليات التنقيب ولا بالنسبة للتعهدات الخاصة بجنوب غرب إفريقيا».

أثار نشر هذا الإعلان فى الصحافة التجارية الألمانية لغطًا بين الشركات وجمعيات التبشير؛ مما جعل المبشر الألمانى برينكر فى أوكاهنجا يكتب خطابًا شديدًا يحتج فيه على المستشار الألمانى وأشار فيه:

«إنه لا فائدة إذن من إبرام الاتفاقات؛ لأن الاتفاقات والحقوق لا يضمنها ويعطيها قيمتها إلا حجم القوة التى تكمن وراءها. وإذا كان ثمة حصة فى الكنز يجب تأمينها، فإن السلطة الأوروپية يجب أن تنشأ هنا لتعاقب كل شكل من أشكال الكبر والزهو الذى يمارسه الأهالى وكل عمل من أعمال العدوان على المصالح. وتحت هذه الحماية فإن مزارع الماشية الخاصة بالأهالى (يقصد بالأهالى هنا الأوروپيين) يجب أن تنمو وكل أوروپى يجب أن يؤمّن وعمل المبشرين يجب أن يزدهر».

وطلب المبشر برينكر من الحكومة الألمانية ٤٠٠ جندى ألمانى وبطاريتين لإنجاز أهدافه .

ومما يثير الانتباه ملاحظة أن مزارع الماشية الخاصة بالأوروپيين نمت وازدهرت فعلاً تحت هذه الحماية ، ففى الوقت الذى ذكر فيه برينكر فى خطابه أن شعب الهيريرو يمتلك ماشية تقدر بعشرات الآلاف ويحتمل أن تكون بمئات الآلاف ، هذه الثروة فى خلال اثنى عشر عامًا بعد تثبيت الحماية الألمانية ذهبت لأيدى الألمان ، فإن من بقى على قيد الحياة من الهيريرو ، لم يكونوا يملكون ثورًا واحدًا ولا عجلاً ؛ إذ منعوا بواسطة القوانين الألمانية من أن يمتلكوا قطعانًا .

أحدثت إجابة الرفض على المطالب إثارة واستياء داخل ألمانيا ، واضطر المستشار الألمانى أن يعدل من موقفه بعد ذلك ، فأرسل أول حملة جنود من ألمانيا وكان عدد أفرادها ضئيلاً لا يزيد عن ٢١ جنديًا تحت قيادة كابتن يسمى س . فون فرانسوا ، وقد وصل هؤلاء إلى ساحل جنوب غرب إفريقيا ، وهناك ترك الكابتن فرانسوا بعض رجاله وأسرع إلى أوكاهنجا ؛ ليقدم فروض الاحترام إلى زعيم الهيريرو «كماهيريرو» ، ولكنه استقبل هناك ببرود فعاد سريعًا وترك المكان ، وذهب إلى ساويبس التى تقع على الساحل حيث بنى قلعته وانتظر التطورات .

* * *

كانت ألمانيا هى آخر الدول الأوروپية التى حصلت على مستعمرات ، وكانت أول دولة أوروپية تخسرها . ففى عام ١٨٧٨م لم تكن ألمانيا تمتلك قدمًا مربعًا واحدًا فى الممتلكات المستعمرة ، وبعد مضى عشر سنوات أصبحت مالكة لمساحات واسعة فى شرق إفريقيا وجنوبها الغربى ووسطها وغربها ، وذلك بفضل جهود المستشار الألمانى بسمارك الذى وحد ألمانيا وسار بها إلى أن تكون دولة كبرى .

ففى نوفمبر ١٨٨٤م دعا بسمارك إلى المؤتمر الشهير مؤتمر لندن - كونغو ، الذى عقد فى برلين (من نوفمبر ١٨٨٤م إلى فبراير ١٨٨٥م) تحت إشرافه .

فى المؤتمر سلّم الجميع بإمكان تقسيم قارة إفريقيا دون اعتبار للسكان ودون اعتراف بأى حاكم فيها ، إلا إذا كان البيض هم الحكّام . وأدت الحدود السياسية الجديدة التى رسموها على الورق إلى تمزيق القبائل بل إلى تمزيق القرى ، وبدلاً من

أن تشن دول الغرب حروبًا بينها حول مناطق النفوذ الاستعمارى اتفق الجميع ضد سكان أقاليم إفريقيا الذين لم يعرفوا شيئًا عن مؤتمر برلين ولم يعترفوا به .

وأعلن المؤتمر أن كل إفريقيا الاستوائية هى منطقة للتجارة الحرة ، وبذلك ضمن لألمانيا شريحة كبيرة فى الكونغو الأدنى ، وبالإضافة إلى عدد آخر من القرارات فقد جعل من واجب كلٌّ القوى الاستعمارية أن تتفق كل منها مع الأخرى فى حالة حدوث توسعات جديدة . وكتب أحد الألمان معلقًا «**لقد انتهى الاحتكار الاستعمارى الإنجليزى وظهر توزيع أكثر عدالة للممتلكات الاستعمارية!**» .

وتمادى المؤتمر إلى أبعد من ذلك ، فقبل انتهائه تعهدت القوى التى حضرت المؤتمر بما يلى :

أولا : حفظ الأجناس البدائية فى إفريقيا .

ثانيًا : المحافظة على مصالحهم .

ثالثا : تنمية تطورهم وتقدمهم المادى والمعنوى .

وفى يوليو ١٨٩٠م كانت ألمانيا ذات دور بارز فى مؤتمر مناهضة العبودية المنعقد فى بروكسل ، وذكر التقرير الصادر عنه بأن ثمة رغبة مؤكدة للقوى التى حضرت المؤتمر بأن تحمى الأجناس المحلية فى إفريقيا من العبودية والاضطهاد .

ولا يثير العجب معرفة أن هذه السياسة الألمانية المعلنة والمعترف بها جعلت الساسة والشعب البريطانى لا يترددون فى الترحيب بهذه القوة الجديدة ودخولها فى مجال الاستعمار العالمى ، باعتبارها كما جاء فى التقرير «شريكًا فى العمل العظيم الخاص بتمدين الأجناس المتخلفة والوثنية فى الأرض» .

كان ظاهراً بأنه بهذه الروح وبهذه التأكيدات بالوعود المؤكدة فى مؤتمرى برلين وبروكسل ، أن بريطانيا العظمى سمحت لألمانيا بأن تستولى على ٣٢٢ ألفًا و ٤٥٠ (٣٣٢, ٤٥٠) ميلاً مربعًا من أراضى جنوب غرب إفريقيا . وهكذا بجرة قلم صار يتبع إمبراطور ألمانيا وتحت سيطرته كل الأراضى الواسعة والفسيحة التى يسكنها الأوفامبو والهيريرو والداماراالاند الهوتنتوت والباستارد والبوشمن .

وقد كتب أحد المؤرخين الألمان مشيراً إلى هذا الحدث بقوله : «باعتبار التوسع

المتزايد للممتلكات الألمانية، فإن أول شيء تحتاج إليه أن يكون ثمة تحديد واضح لمجالات النفوذ لكل من ألمانيا وانجلترا؛ وذلك لضمان التأسيس الجاد للعمل الحضارى لكل من الأمتين».

بعد أن صار إلحاق أراضى جنوب غرب إفريقيا بألمانيا حقيقة واقعة، وأتم الساسة الألمان إنجازهم فإن الرأى العام الألمانى بدأ يكتشف بعد سنوات ليست كثيرة من الإلحاق أن حقيقة السياسة الألمانية كانت مرعبة بالنسبة للأهالى سيئى الحظ فى جنوب غرب إفريقيا. ولم تظهر آثار هذه السياسة بشكل قوى، إلا بعد التمرد الثانى والأخير للهيريرو ١٩٠٤م. وإن الدكتور چو الذى كان يشغل منصبًا رفيعًا فى المكتب الألمانى ١٨٩٠م، والذى يعتبر ملهمًا ومعتمداً بالنسبة للسياسة الألمانية الاستعمارية كتب يقول: «إن قرار استعمار جنوب غرب إفريقيا لم يكن يمكن أن يعنى أكثر مما يلى، أن تسلم القبائل أراضيهم التى كانوا يرعون عليها ماشيتهم، من أجل أن يستطيع الرجل الأبيض امتلاك هذه الأراضى ليرعى عليها ماشيته. هذا الموقف عندما جرى التساؤل عنه من وجهة نظر القانون الأخلاقى، كانت الإجابة أنه بالنسبة للشعوب الخاصة بجنوب غرب إفريقيا فإن فقد حريتهم وتطورهم إلى طبقة من العمال تخدم وتتبع الشعب الأبيض، **أن ذلك يمثل تطبيقًا لقانون الوجود أى البقاء للأقوياء والبقاء للأصلح على أوضح مستوى (صراع الوجود)، إن ذلك ينطبق على الأمة بقدر ما ينطبق على الفرد؛ فإن حق الوجود يبرره فى الأساس الدرجة التى يكون فيها الوجود مفيداً للتقدم والتطور العام**. ولا توجد حجة يمكن إبداؤها تتعلق بأن المحافظة على الاستقلال الوطنى وعلى الملكية الوطنية وعلى التنظيمات السياسية لأجناس جنوب غرب إفريقيا بأية درجة من درجات هذا الاحتفاظ، يمكن أن تكون أكثر ملاءمة أو بذات القدر من المزايا، بالنسبة لتطور الجنس البشرى بعامة أو تطور الجنس الألمانى بخاصة من جعل هذه الأجناس خادمة ومجالاً لامتلاك الرجل الأبيض لملكيته وسيطرته».

رئيس الهوتنتوت الرائع

فى ١٨٩٠م كان قد عين الكابتن الألمانى س. فون فرانسوا مديراً للأراضى

الملحقة، ووجد الأمور فى حالة شديدة الاضطراب؛ بسبب أفعال سلفه د. جورنج الذى هرب من سوء إدارته.

كان وضع فون فرانسوا شديد الاضطراب، لم يكن معه إلا ٢١ جنديًا، وأكثر من ذلك فإنه صادف وصوله إلى هناك أن شبت الحرب بين الهيريرو تحت قيادة كماهيريرو وبين الهوتنتوت بقيادة الإفريقى الرائع والجندى القوى هندريك ويت بووى. ويعد هندريك ويت بووى من أكثر زعماء الهوتنتوت قدرة على التأثير فى النفوس، كان قائداً ورجل دين ودولة، ومات وهو يحارب المستعمر، وقد وحد قبائل الهوتنتوت وعقد اتفاقية وقعها جميع زعمائهم تعهدوا فيها ألا يبيعوا أراضيهم إلى شخص أبيض وألا يشنوا حربًا على الهيريرو دون سبب مشروع. وكان الهيريرو يمثلون العدو اللدود للهوتنتوت.

وكان هندريك ويت بووى وأبوه ويت بووى مؤسس مملكة الويت بووى، قد رفضا من البداية أية معاهدة للحماية مع المندوب الألمانى جورنج، وقد غضب الرئيس ويت بووى عندما عرض عليهم جورنج اتفاقية حماية ليوقعها وكان غضبه شديداً إلى حد أن أغلق مقر الكنيسة والبعثة التبشيرية، ومنع قسيس الكنيسة «راست» من أن يقدم أى خدمات دينية، وصار هو القسيس الأكبر لشعبه ونقل ذلك إلى ابنه وخليفته هندريك الذى اتبع طريق أبيه حتى وفاته.

أدرك الألمان أنه مضيعة للوقت محاولة التفاوض مع ويت بووى؛ لذلك فإن د. جورنج وفون فرانسوا حوّلا اهتمامهما إلى كماهيريرو زعيم الهيريرو، فقدما إليه وعداً من إمبراطور ألمانيا بأنه سيرسل جنوده ليساعدوا الهيريرو ضد هندريك ويت بووى، وبذلك سيطرا على كماهيريرو وأكدا على اتفاقية ١٨٨٥م، التى كان قد وقعها كماهيريرو من قبل مع د. جورنج ثم عدل عنها فأعيدت إلى الفاعلية. ولما أمن جورنج جانب الهيريرو بعث إلى هندريك ويت بووى بما يلى:

«إلى الرئيس هندريك ويت بووى، لقد أبلغت أن فى نيتك أن تشن الحرب ضد الهيريرو، وأنك تنوى كما فعلت من قبل أن تدمر القرى وتنهب الماشية. إن الحكومة الألمانية لا تستطيع أن تحتمل الاضطرابات المستمرة التى تثيرها ضد السلام بالنسبة للأرض والشعب الحائزين على حماية ألمانيا، وأن تثير الاضطرابات بالنسبة

للتجارة وخطوط الاتصال، إنك مجبر على أن تحفظ السلام بكل الوسائل فى كل الأراضى، وإنى أطلب منك أن توقف الحروب، وأن تنشد السلم مع الهيريرو، وأن تعود إلى «جيبون – Gibeon» إننى أو من يمثلنى أو من يخلفنى مستعد للتدخل من أجل استعادة الصداقة، وحكومة انجلترا تؤيدنا فى جهودنا لضمان السلام وليس ذلك فى مصلحتك، وقد أوقفت توريد السلاح والذخيرة لك من بتسوانالاند البريطانية. وإن الحكومة الألمانية تمتلك وسائل أخرى من القوة لتحطيمك، ويتعين أن يكون هذا واضحًا لك؛ لذلك أطلب منك بإصرار أن تلجأ للسلام إذا كنت تريد أن تحافظ على أرضك وشعبك ونفسك».

بعد أن تسلم ويت بووى الخطاب تجاهله، وفشلت التهديدات والبيانات الواردة به أن تحدث أى أثر لديه، ولم يرد على جورنج وإنما توجه إلى عدوه التقليدى كماهيريرو، وبعث إليه بخطاب يعد نصًّا رائعًا فى مفهوم الوطنية:

«إلى العزيز كابتن كماهيريرو

اليوم أكتب لك فى إطار صلاحيتك باعتبارك الرئيس الدائم لداماralاند؛ لأنى استلمت خطابا من د. جورنج قال لى فيه أشياء خطيرة؛ مما وجدت معه من الضرورى أن أخاطبك.

من محتوى خطاب د. جورنج سمعت وفهمت أنك وضعت نفسك تحت حماية الألمان، وأن د. جورنج بذلك حصل على النفوذ الكامل والسلطة ليأمر وليصل بين الأشياء وليتدخل فى شئون بلادنا، ويتدخل حتى فى هذه الحرب التى تقوم من قديم بيننا.

لقد أدهشنى وإنى ألومك لأنك أسميت نفسك الرئيس الدائم لداماralاند وهذا حقيقى؛ لأن بلدنا له اسمان فقط هما داماralاند و«نامالاند–Nama Land»، ويمكن القول: إن داماralاند تنتمى إلى أمة الهيريرو وهى أمة مستقلة ومملكة مستقلة، وإن نامالاند تنتمى فقط إلى الأمم الحمراء اللون فى الممالك المستقلة، بمثل ما يقال عن أراضى الشعب الأبيض مثل ألمانيا وانجلترا وغيرهما.

إنها ممالك مستقلة وكل الأمم المختلفة لديها رؤساؤها الخاصين، وكل رئيس فيهم

له أرضه وشعبه الذى عليه وحده يمارس الحكم؛ ولذلك لا يوجد شخص آخر أو رئيس آخر يمكن أن يصدر له أمرًا أو يجبره على شىء.

وفى هذا العالم فإن كل رئيس لأمة هو مجرد ممثل لقدرة الله تعالى، وهو يقف مسئولاً أمام الله وحده ملك الملوك جميعًا وسيد السادة كلهم، وأمامه فنحن جميعًا الذين يحيون تحت قبة السماء نركع على ركبنا.

ولكن يا عزيزى الكابتن فقد قبلت أنت حكومة أخرى، وسلمت لهذه الحكومة لكى تكون محميّا من حكومة بشرية أخرى من كل الأخطار وأساسًا لتكون محميّا منى فى هذه الحرب.. إنك محمى من حكومة ألمانيا وهى من تساعدك ولكن يا عزيزى الكابتن هل يمكنك أن تقدر هذا الذى تصنعه؟.. إنك تنظر لى باعتبارى عائقًا وعقبة؛ ولذلك فقد قبلت هذه الحكومة الكبيرة لكى تحطمنى بجبروتها، ولكن يبدو لى أنك لم تستوعب الأمر جيدًا بالنظر إلى وضعك ووضع شعبك وبالنظر لأخلافك الذين يأتون من بعدك وبالنظر لسلطاتك الرئاسية نفسها.

هل تتصور أنك ستستعيد حقوقك وسلطاتك باعتبارك رئيسًا مستقلاً بعد أن تحطمنى إذا نجحت؟، هذه فكرتك، ولكن يا عزيزى الكابتن فى النهاية ستشعر بالندم بعد أن تكون سلمت أرضك وسلطاتك على الأرض إلى أيدى الشعب الأبيض.

وأكثر من ذلك أن حربنا ليس ميئوسًا منها بالقدر الذى تتخذ هذه الخطوة الكبيرة (وهنا فإن ويت بووى أعاد باختصار ذكر أسباب الحرب والخطوات التى يمكن أن تأتى بالسلام)، وبنفس الطريقة التى يمكن أن يتبارا فيها بغير تدخل أجنبى، ولكن بالرغم من ذلك كله فإنى آمل أن الحرب بيننا تنتهى وأن يتلوها السلام.

ولكن هذا الشىء الذى فعلته وهو أنك سلّمت نفسك للشعب الأبيض يحكمك متصورًا أنك تتصرف بحكمة، أن ذلك سيصبح عبئًا عليك وستحمله خطيئة على ظهرك.. قد تأملت بكفاية هذا الأمر، وما إذا كنت قد فهمت ما تصنعه وتسليمك نفسك للحماية الألمانية.

وأنا لا أستطيع أن أعرف ما إذا كنت وأمة الهيريرو تفهمون العادات والشرائع والسياسات الخاصة بهذه الحكومة، وأنكم ستحيون بسلام تحت قيادتها..

إنك لم تفهم و لم تهنأ مع أفعال د. جورنج؛ لأنه لن يستشيرك فى رغباتك ولن يرجع إلى شرائعك وعاداتك، وهذا ما ستكتشفه بعد فوات الوقت وبعد أن تكون سلمته كل سلطاتك».

واستمر الخطاب الذى أضاف فيه السياسى الكبير رئيس الهوتنتوت أن الهيريرو والألمان ليسوا أصدقاء أبدًا، وأن هذه الاتفاقية بينهما تمت لمجرد تحطيمه.

وفى النهاية أعلن ويت بووى أنه لا يمكن أن يتنازل إلى قبول الحماية لنفسه ولشعبه من أحد قط غير ملك السموات الحامى الأعظم.

(هذا الخطاب تداول فى العديد فى كتابات الكتّاب الألمان، ووجدت نسخة منه فى الأرشيفات الألمانية؛ لذلك لا يوجد شك فى مصداقيته).

الوعود المهدرة

إن هذه المقتطفات من الخطاب الطويل لرئيس الهوتنتوت تشرح فقدان الثقة والشكوك الفطرية التى كانت عند الهوتنتوت بالنسبة للألمان، وتوضح السبب الوحيد الذى جعل الهيريرو يتقبلون الحماية من ألمانيا ثم ينقلبون عليها.

كان الهوتنتوت المستقلون محبو الحرية، يرغبون فى البقاء أحرارًا تمامًا، وغير مقيدين من الحكومات الأجنبية. وفى الجانب الآخر كان الهيريرو الفخورون والميالون للسلام ينظرون إلى الهوتنتوت فى الجانب الجنوبى منهم، باعتبارهم تهديدا قائمًا يهدد أمن قطعانهم الضخمة. إن الهيريرو يعيش ويقدس قطعانه، وتقاليده واحتفالياته الدينية وطقوسه الوطنية تحتم عليه أن يمتلك الماشية بأكبر قدر ممكن، فالماشية تعنى بالنسبة له القوة فى هذا العالم والخلاص فى العالم الآخر؛ لذلك كان عليه لكى يحميها أن يقبل الحماية الألمانية له، وقد قيل له: إن إمبراطور ألمانيا ذا الجبروت سيرسل قوات لتدمير الهوتنتوت وإقرار السلام؛ لذلك قبل الهيريرو حماية ألمانيا باتفاقية دون إدراك كامل لما تعنيه بنودها وهو أن يلحقوا بالسلطة الألمانية، وهذا ما اكتشفوه فيما بعد وأشعل الحرب بينهم وبين الألمان، وهى الحرب التى أبيد فيها شعب الهيريرو.

كان هذا الوعد بالحماية مثل كل وعود ألمانيا التى أعطيت للأهالى ولم تلتزم بها، وهى لم تعط هذه الوعود بجدية، بل كانت مجرد مناورة. وعندما أرسل إمبراطور ألمانيا قواته إلى أرض الهيريرو - بعد ذلك بسنوات - كان قد أرسلها لتحقيق أغراض أخرى منها محاربة الهيريرو أنفسهم.

إن هندريك ويت بووى الذى لم يحمل بجدية وعود الألمان لكماهيريرو، وأظهر ما يعتقده، وهو أن من واجبه مواصلة الحرب ضد الهيريرو بروح جديدة وتصميم قوى. وعندما قامت الحرب بين الهوتنتوت والهيريرو (ويقال: إن هذه الحرب شنت بسبب يرجع إلى قتل عدد من الهوتنتوت من مربى الخيول على أيدى الهيريرو، وإن ويت بووى لم يكن فى حالة عدوان) فإن الهيريرو المتعبين توجهوا بيأس إلى فون فرانسوا من أجل المساعدة العسكرية الألمانية الموعود بها. فماذا كان يمكن لفون فرانسوا أن يفعل وهو ذاته لم يكن لديه قوات كافية تزيد عن الحراسة الشخصية له، ولم يكن هناك أمل مباشر لتقوية هذه الحراسة وتطويرها إلى الأغراض الهجومية، ولم يكن يجرؤ أن يطلب أيا من ذلك من حكومة ألمانيا، فإن التعليمات المحددة التى كانت لديه من برلين، هى أنه عندما يصل الأمر إلى الاقتتال فعليه ألا ينحاز لأحد الجانبين، وأن يبقى فى حالة دفاعية عن نفسه فقط.

والحادث أن فون فرانسوا قد شارف على اليأس من التأنيب والهجوم الذى واجهه من حلفائه الهيريرو؛ فقرر أن يجرى زيارة شخصية لهندريك ويت بووى فى قرية هذا الأخير.

قابل الرئيس المخضرم «هندريك ويت بووى» «فون فرانسوا» بحفاوة ولكن ببرود، وبطريقته المعتادة وباهتمام زائد أمر سكرتيره أن يسجل هذا اللقاء.

وهذه بعض المقتطفات التى أملاها هندريك بووى فى اللقاء الذى تم فى ٩ يونيو ١٨٩٢م:

١ - ذكر الكابتن الألمانى المفوض إلى الكابتن ويت بووى ما يلى: لقد استمعت إلى أشياء عنك من رجال بيض ومن قبائل الباستارد، وعرفت أنك دائمًا تعيد أى ملكية إلى البيض أو الباستارد ممن يكون وقع فى يديك ومن يكونون من غير المشتركين فى الحرب.

إن ذلك سرنى للغاية وإنى أوافق على صداقتك وأقدر سلوكك العادل وحكمتك، ومن ذلك أنك لم تؤذ ولا تحاملت على أى شخص لم يشترك فى هذه الحرب، ولكن هناك العديد من الشكاوى تتعلق بالهيريرو وبالنظر إلى تصرفاتهم الحمقاء وغير المشروعة.

إن الحكومة سألتنى عما يمكن عمله، لقد أجبتها بأنى سأبادر بالذهاب إلى هندريك ويت بووى وأتحدث معه؛ لذلك جئت إليك لأتكلم معك. وقد جئت إليك كصديق؛ لأعطيك نصيحة جيدة، ولأسألك: عما إذا كنت لست مثل الرؤساء الآخرين فى هذه البلاد الذين وضعوا شعوبهم وأنفسهم تحت حماية ألمانيا؟ فى السفينة القادمة سيصل الأوروبيون وشعوبكم يجب أن تكون محمية، وقد وعدت حكومة ألمانيا بحماية كل من يندرج تحت حمايتها.

٢ - أجاب الرئيس هندريك ويت بووى: نعم إننى سمعت عن مجيئك وعن تعاضدك. فى البداية هل شعبك أرسل إلىَّ هنا بواسطة إمبراطور ألمانيا؟

٣ - فون فرانسوا يجيب: نعم لقد أرسلنا بواسطة الحكومة الألمانية، لقد أرسل د. جورنج وأرسلت أنا الآن لأخلفه ولدىّ صلاحيات رسمية.

٤ - ذكر الرئيس هندريك ويت بووى: ثانيا اسمح لى أن أسألك: ما الحماية؟ ومن أى شىء سنكون محميين؟ ومن أى مخاطر أو صعوبات أو متاعب يمكن لأحد الرؤساء أن يكون محميّا من الآخر؟

٥ - أجاب فون فرانسوا: من البوير ومن الأمم القومية الأخرى التى ترغب فى شق طريقها إلى هذه الحرب، إنهم يرغبون فى أن يأتوا ويحيوا هنا ويشتغلوا ويعملوا ما يشاءون من غير أن يطلبوا إذنًا من رؤساء هذه الأرض، وحتى الآن فى رحلتى هذه قابلت البوير الذين وصلوا فعلاً تحت حماية ألمانيا، وليس لديهم لا القوة ولا الحق أن يدخلوها، وإنك أيها الرئيس يجب أن تفهم أن الرؤساء لن يجردوا من حقوقهم ولا من قوانينهم، وسيكون للرئيس ويت بووى امتيازات مقررة على شعبه مثلما هى الحالة مع الرئيس الهيريرو فى «ريهوبوث - Rehopoth».

٦ - أكد الرئيس ويت بووى: هكذا أنا أفهم الموضوع، وبالنسبة لى فإن الأمر يدعو للعجب، وأنا لا أستطيع أن أفهم أن الرئيس عندما يكون رئيسًا مستقلاً

وحاكمًا على أرضه وشعبه ـ وهكذا يجب أن يكون كل رئيس ـ يمكن أن يدفع عن شعبه كل المخاطر والتهديدات، لا أستطيع أن أفهم أن هذا الرئيس إذا قبل حماية الغير له يمكن أن يكون رئيسًا مستقلاً، إن كل إنسان تحت الحماية سيكون محكومًا من الشخص الذى يحميه. . وأكثر من هذا أن إفريقيا هذه هى أرض الرؤساء الحمر مثل الهوتنتوت، وعندما يتهدد الخطر أى رئيس، وعندما يشعر أنه غير قادر وحده على مواجهة هذا الخطر فيمكن له أن يستدعى أخاه الرئيس الآخر أو إخوته الرؤساء من الشعب الأحمر، ويقول له: تعال أيها الأخ أو تعالوا أيها الإخوة لنقف معًا ونحارب من أجل أرض إفريقيا ونواجه الخطر الذى يتهدد أرضنا؛ ذلك أننا مثل بعضنا البعض فى اللون وفى السلوك وفى الحياة، رغم أننا منقسمون رؤساء عديدين فإن الأرض التى لنا أرض عامة.

٧ ـ أجاب فون فرانسوا: نعم إن ما قاله الكابتن الآن هو صحيح وصواب، وأنا نفسى لا يمكن أن أفعل غير ذلك، أنا لا أقصد أن تقف تحت زعيم آخر ولكن الكابتن يتعين أن يكون متفهمًا أنه لم يجبر على الخضوع للحماية، وأن الأمر متروك لمحض إرادته الحرة فى الاختيار والأمر يتعلق بما يقدره هو ويراه.

وفى هذا السياق فإن فون فرانسوا أوضح أن الشعب الذى يكون تحت الحماية الألمانية هو وحده الذى سيسمح له بالبنادق والذخيرة، وأنه من المحزن أن يرى افتقادهم للذخيرة والرصاص.

وذكر أيضًا معلومات تقول: إن حروب ويت بووى مع الهيريرو قد جذبت انتباه جميع الأمم فى العالم، وأن الألمان والإنجليز والفرنسيين والإسپان والإيطاليين كلهم قرروا بالإجماع منع تصدير الذخيرة إلى هذه البلاد.

[هذه الأخبار أزعجت هندريك ويت بووى الذى لاحظ أنه لايستطيع أن يقدر هذا القرار، وإن مناقشة طويلة تلت بالنسبة لعدالة اتخاذ هذه الخطوة].

٨ ـ بعد وقت حصل المبعوث الألمانى على فرصة أخرى للحديث، قال: أعتقد أن الرئيس بعد كل ما قيل وحدث، يمكنه أن يصنع السلام مع الهيريرو، وهم إذا حاولوا أن يرتكبوا خطأ مع شعبك فإن الحكومة الألمانية ستمنعهم وستهتم بمنع ذلك.

وفى الإجـــابة على هذا الحــــديث تفـــادى الرئيس هندريك ويت بووى المناقشة، وعـاد إلى الأسئلة الخاصـة بالأسلحـة والذخيـرة، وقد أصرَّ على رفض مناقشة السلام.

* * *

أدرك المبعوث الألمانى أن زيارته غير مثمرة، كما اتضح لويت بووى أن الألمان سيساعدون الهيريرو ضد الهوتنتوت.

بعد هذه المقـابلة تأكد الرئيس العـجوز الذى كـان غيوراً على حـقوق شعبه أن الألمان لن يتركـوه، رغم أنه كـان حريصًا على استبقاء علاقات مع التجار الألمان الذين كانوا يجيئون ويذهبون، وكانت قطعان ماشيتهم وسلعهم لا يمسها أحد إطلاقًا، كما كان أيضًا يتجاوب مع الاتصالات الألمانية فى المسائل الرسمية. ففكر بحسه السياسى الأصيل أن يتصل بالمندوب البريطانى وأن يتفاهم معه، فكتب إليه فى أغسطس ١٨٩٢م رسالة يقول فيها:

«من هورن كـرانز إلى المندوب البـريطانى فى خليج ولفش. أجـدنى ملزمًـا ومـضطرًا ومـدفـوعًـا إلى نصـحك عن الوضع والظروف الذى أعـيش فـيـهـا الآن، وأقصد الوضع الخاص بالألمان الذين أتوا إلى أراضينا، إنى أسمع وأرى أشياء هى مستحيلة بالنسبة لى وليست طيبة ولا عـادلة، ومن ثم فإنى أكتب لك باعتبارك المندوب الإنجليزى بأمل يشجعنى إليه الصداقة القديمة التى قامت بين جدى الراحل والحكومـة الإنجليزية، وهى صـداقة أعتـرف بها هذه الأيام. لقد رأينا وتعلمنا من التجربة أننا نستطيع أن نتفق مع الإنجليز فى العمل والحياة العادية إذا كان هناك تفكير بأن دولة ما تكون مفضلة فى إفريقيا، إن هذا يقال على الإنجليز؛ لأنهم أول من جاء إلى هذه الأرض، وقد صرنا على تعارف بهم فى العمل وفى الصداقة الشخصية وهى صداقة كافية لنا.

إننى لا أطلب أكثر من الصداقة مع أمة بيضاء، وهذا رأيى عن الحكومة الإنجليزية والصداقة القديمة التى تربط جدى بالإنجليز لا زالت باقية. ولكنى الآن أجد رجلاً آخر هو غـريب تمامًا عنى، إن أحكامه وأفعـاله مسـتحيلة تمامًا بالنسبة لى وغـير مـحتملة، ومن ثم فـإنى أكتب هذا الخطاب إلى سيـادتكم على أمل أن تنصـحنى

بالحقيقة الكاملة بالنسبة لتساؤلاتى الخاصة بالألمان الذين جاءوا؛ لأن أعمال الألمان تنتهك أراضينا ، وتهدد حياتى الشخصية . لقد أتوا لتحطيمى بالحرب بغير أن أعرف ما أذنبته .

لقد قيل لى إنهم فى نيتهم إطلاق الرصاص علىّ، وإنى أسأل سيادتك أن تجيبنى على السبب لعلك تعرف ؛ لأنكم شركاء فى معاهدة ، إن حكومة ألمانيا عقدت لقاء كبيرًا لتناقش لمن تلحق هذه الأرض بغرض عقد اتفاقات الحماية مع رؤساء هذه الأرض وأنتم أيها الإنجليز قد أسلمتم هذه الأرض للألمان .

ولكنك قلت أيضًا فى الاجتماع إنه لن يجبر أحد الرؤساء بالقوة ، وقلت أيضًا إن أى رئيس إذا شاء وتفهم هذه الحماية يمكنه أن يقبلها . . كان هذا هو قراركم فى اجتماعكم وقد وافقتهم عليه بالإجماع ، وقد حدث أيضًا أن بعض الرؤساء قبلوا الحماية الألمانية ، وهم اليوم يأسفون جدّا على ذلك ويشعرون بالندم ؛ لأنهم لم يروا نتيجة من هذه العوالم التى كلمهم الألمان عنها .

إن الألمان حدّثوا الرؤساء الإفريقيين بأنهم يرغبون فى حمايتهم من الأمم القوية الأخرى التى تنوى المجىء إلى هذه الأرض بسلاحها وتجرد الرؤساء من سلطانهم بالقوة ، كما تجردهم من أراضيهم ومزارعهم ، ومن ثم فقد كانت دعوى الألمان حماية الرؤساء ضد هؤلاء الظالمين الحمقى ، ولكن بقدر ما رأيت وسمعت بدا لى العكس أن الألمانى هو الشخص نفسه الذى أخشاه وهو الموصوف بما وصف به غيره ، وهو الآن يستظل بقوانين حكومته وبقوتها ، ولا يستجيب لأى نداء يتعلق بالحق أو العدل ، ولا ينتظر إذنًا من أى رئيس .

إنه يطبق قوانين فى هذه البلاد طبقًا لآرائه الشخصية ، وهى قوانين مستحيلة وغير محتملة وغير منطقية وغير مقبولة ولا تتضمن أى شعور بالرحمة .

إنه شخصيّا يعاقب شعبنا فى وندهوك وهو يضرب الناس حتى الموت من أجل الديون ، إنه ليس من العدل ولا من الاستقامة أن تضرب الناس حتى الموت من أجل هذا الأمر . لقد مات أربعة فى برج داماس وواحد من رجال الحمر ، كما جلد الناس بطريقة قاسية وبشعة ، ونحن الذين يرانا الألمان حمقى وأغبياء . . لم نعاقب آدميا قط بهذه الطريقة القاسية غير المعقولة ، لقد مد الناس على ظهورهم وجلدوا على

بطونهم وبين أفخاذهم، سواء كانوا ذكوراً أوإناثا، ولك أن تتصور يا صاحب السعادة أن أحداً منهم لم يعش بعد هذا العقاب .

ثانيًا عندما جاء بعض الداماراً إلى مزرعتى غلبهم النوم من كثرة التعب، فأتى أربعة من الرجال البيض تحت قيادة قائد ألمانى وقتلوا الرجال الستة من الدامارا، ومن ثم فإنه قد قتل فعلاً ١١ شخصاً بغير ذنب بواسطة الألمان، وإنى أكتب لك يا صاحب السعادة عما إذا كنت تعرف بهذه الأشياء والأفعال وعن نوايا هؤلاء الألمان؟».

* * *

ومضى الرئيس فى خطابه الذى ملأ ١٤ صفحة من القطع الكبير، وهو أطول من أن يكتب بنصه هنا، مضى يقول: «إن بلادنا قد اشتريناها بدمائنا مرتين من أيام جدى إلى الآن، ومن الواضح وغير المشكوك فيه أن أراضينا هى لنا طبقًا لكل قوانين الحرب المعروفة، ولأنى رئيس مستقل فإنى لا أسلم نفسى ولا أرضى ولا شعبى للحماية الألمانية».

بهذه النبرة والمنطق الواضح الصريح، فإن الرئيس ويت بووى أشار إلى أن جميع حقوق التجارة والامتيازات فى أرضه كان قد أعطاها جده إلى الرجل الإنجليزى، وهو يتساءل بالرغم من ذلك ويقول: «أيها الصديق الإنجليزى القديم هل سلمتنى إلى أيدى الألمان؟».

أرسل ويت بووى الخطاب إلى المندوب البريطانى وسلمه باليد أحد رجاله، وقد تأكد أن الخطاب قد استلم وأرسل إلى حكومة الكاب، ثم انتقل إلى حكومة الإمبراطورية البريطانية فى أكتوبر ١٨٩٢م.

انتظر هندريك ويت بووى رئيس قريته المسماة هورن كرانز نتائج هذا الاتصال، وكانت نظرته واضحة عن السلام مع الهيريرو ومع أى جماعات أخرى، وقد حكم شعبه وسوى المنازعات وأقام الخدمات الدينية وكتب الرسائل، ولكن هذا الهدوء لم يستمر مدة طويلة . فمع بداية ١٨٩٣م زادت الحامية الألمانية إلى ٢٥٠ جنديّا وزودت بمدفعيتين، ورغم أن اتفاقية سلام عقدت بين الهيريرو والهوتنتوت جعلت

التدخل العسكرى الألمانى غير ضرورى، فقد تلقى الكابتن فون فرانسوا من السلطة الألمانية تعليمات لإقامة الهيمنة الألمانية، وترك له أن يحقق ذلك بوسائل الهجوم أو الدفاع، وعليه أن يجعل الأجناس المحلية تشعر بقوته. وقد اعتبر فون فرانسوا أن ويت بووى مناسب لهذا الغرض وأن إذلاله سيؤدى إلى أعظم تأثير فى الآخرين.

عرض الألمان الحماية على ويت بووى مرة أخرى، فصاح هذه المرة فى وجه القائد العسكرى فون فرانسوا: الحماية؟ .. كل شخص تحت الحماية يكون خاضعًا لذلك الذى يحميه؛ وأنا أرفض الخضوع لأحد.

تم الهجوم على حصن ويت بووى وأسر الألمانُ النساءَ والأطفال، وهرب ويت بووى ورجاله المحاربون إلى الجبال المحاطة بالصخور، وطلب ويت بووى نجدة الهيريرو ولكنهم لم يجيروه. وعندما طلب إليه الحاكم الألمانى التفاوض لإقرار السلام أجابه ويت بووى «إننى لم يطلق علىّ النار لذنب جنيته بالقول أو بالعمل بل لمجرد أننى أرفض التسليم، والتسليم هو أمر يتعلق بى وهو حق لى، وإنى لا أفرط فى استقلالى».

فغيّر الألمان عرض التسليم بالهدنة فقبلها ويت بووى؛ آملاً أن يتمكن من جمع فلول رجاله المقاتلين، وبناء الاستحكامات وساد الهدوء عدة أشهر، وبينما كان ويت بووى يتمتع بما أسموه بالهدنة ولا تساوره الشكوك فى استئناف العمليات العسكرية، فوجئ باحتلال القوات الألمانية خطوط دفاعه وقذفت حصنه بالرصاص ودكته، وبعد ثلاثة أسابيع كانت قواته تموت جوعًا وتقتات الجراد.

وحسب كلمات الحاكم الألمانى السابق ليتوين ووصفه المختصر لهذه العملية التى تتسم بالخيانة يقول: «فى ظل المحافظة على أقصى درجات السرية، فإن القوات اقتحمت هورن كرانز مقر ويت بووى فى صباح ١٢ أبريل. لقد كان الرئيس فى الظاهر يعتمد على الإعلان الرسمى للحرب؛ لذلك فقد أخذ على غرة، وكان يشرب قهوة الصباح باطمئنان وسلام، ومع ذلك فقد استطاع أن ينجح فى المحافظة على نفسه وكذلك أمكن المحافظة على أغلب قواته المقاتلة ولم يقع تقريبا فى أيدى الغزاة إلا الزوجات والأطفال».

وكتب الكابتن «شواب» وكان فى المقدمة مع القوات الألمانية تحت قيادة فون

فرانسوا ، كتب يصف القتال قائلاً : «وفجأة فإن مقاتل هوتنتوتى قفز من خلف صخرة وأسرع حتى أدرك العساكر المتقدمين ، وقد أصيب فى صدره وانفجرت من ضلوعه الدماء . وفى كل الجوانب فإن مناظر مرعبة ظهرت لنا ، وخلف الشجر ظهرت جثث لسبعة من رجال ويت بووى ، وفى مكان آخر فإن جسد امرأة من برج دامارا كان يسد الطريق ، وأطفالاً ما بين الثالثة والرابعة من عمرهم مقتولون بجوار جثة أمهم .

إن الصحف الإنجليزية قد أدانتنا وهاجمتنا على أساس أننا فى هورن كرانز قتلنا النساء والأطفال ، وأن جنودنا لم يتركوا طفلاً ولا امرأة ، وقد هاجمونا بشكل غير منصف ؛ لأننا كنا حتى فى أثناء إطلاق النار نستطيع أن نميز بين الرجال والنساء وبالتأكيد لم نقتل امرأة(١) . لقد وجدت كهوفًا محروقة وبشرًا وبقايا حيوانات متناثرة ، وكانت هذه هى الصورة التى رأتها أعيننا . وكانت زوجة الرئيس ويت بووى وابنته التى لم تتجاوز التاسعة عشرة من العمر بين المسجونين ، وقد وقفت الابنة دون أى تعبير عن الخوف وأجابت على أسئلتنا بحرية وبكبرياء وقالت لنا : «لقد سمعت أنكم أتيتم من وراء البحر فى سفينة لكى تحاربوا أبى ، وكان النصر حليفكم اليوم ، ولكن الحظوظ تتغير ، وإذا قبلتم نصيحتى فعودوا إلى بلادكم ؛ لأنه لن يمضى وقت طويل حتى يعود أبى مثل الأسد وينتقم منكم» .

ولكن لم يتحقق حلم الابنة ، وأدرك هندريك ويت بووى وهو الرئيس الدائم لناماكوالاند الكبرى Great Nama Qualand أنه صار رعية ألمانية ، وهو الذى لم يتباطأ فى تقدير الخطوات التى يتعين اتخاذها لمصلحته ومصلحة شعبه ، ولم يكن أمامه إلا أن يبدأ مفاوضات السلام مع الهيريرو . وفى أغسطس ١٨٩٣م وقعت معاهدة السلام وانتهت مرحلة إخضاع ألمانيا للهوتنتوت لتبدأ مرحلة إبادة ألمانيا لأصدقائها الهيريرو .

---

(١) لقد نسى أن يضيف أن الألمان هم من بدءوا فى إطلاق النار فى الأوقات الأولى من الفجر على الأكواخ التى كان ينام فيها الرجال والنساء والأطفال ، وأنهم كانوا يعلمون جيداً أنه لا بد أنه قد قُتل فى ذلك نساء وأطفال .

ثورة الهيريرو

صار الهوتنتوت الذين كانوا أشد المعارضين للألمان حلفاءً خاضعين لهم، وانقلب الوضع، وبعدما كان الهيريرو حلفاء الألمان صاروا أكثر القوى المعارضة لهم؛ ذلك أنهم كانوا قد قبلوا حماية الألمان باتفاقية من غير إدراك كامل لها، ووجدوا أرضهم ومواشيهم لم تعد ملكًا لهم، فأعلنوا الثورة التى استمرت أكثر من أربع سنوات، وكبدت الألمان خسائر فى الأرواح بلغت خمسة آلاف جندى ومستوطن ألمانى ونفقة تبلغ ١٥ مليون جنيه استرلينى.

كان من أسباب الثورة احتلال الألمان لأراضى القبائل، والوسائل الوحشية التى مارسوا بها سيطرتهم، وحوادث أخرى من التجار البيض وفقدان الصبر وقسوة الحكم الأبيض، كما كان قرار احتلال جنوب غرب إفريقيا يعنى شيئًا واحدًا لألمانيا، وهو أن تقوم القبائل بتسليم الأرض التى كانت ترعى فيها ماشيتها؛ وذلك ليتاح للرجل الأبيض امتلاك الأرض والماشية، وأيضًا الحصول على الماس(١) الذى اكتشف بكميات وفيرة على سطح التربة الرملية فى إقليم لودريتز، وكانت إحدى الصعوبات التى تواجه استغلاله هى الندرة الكبيرة فى الماء وإغارات القبائل.

وما أن حل عام ١٩٠٣م حتى كان الألمان قد استولوا على نصف عدد ماشية الهيريرو؛ وذلك بإجراء الصفقات التجارية التى وصفت فيما بعد بأنها سرقة تتسم بالصفاقة، وفى هذه السنة مات كماهيريرو منشئ وطن الهيريرو، وعين الألمان ابنه صامويل كماهيريرو خليفة له، وكان تفضيل الحكومة له دون اعتبار لمن يراه الهيريرو أحق منه، وأحدث ذلك انقسامًا شديدًا فى القبيلة.

فزعت جماعة الهيريرو لما رأت المعاهدات تفسخ والقسوة التى استخدمت فى إحلال النظام الألمانى الجديد بدلاً من حكم زعماء القبيلة وعرفها القبلى القديم، وكان الحاكم الألمانى يستبد بالضعفاء الذين يخالفون معاهدات الحدود؛ مما أدى إلى مصادرة ماشية الهيريرو التى تجتاز الحدود، فضلاً عن فقدانهم لأراضيهم، ولم تكن القبائل تعرف معنى الملكية الخاصة بالأراضى.

---

(١) بعد القضاء على ثورة القبائل هناك وإخضاعهم تمامًا ١٩٠٨م أسست عدة شركات لاستغلال منطقة الماس، وكانت أول شحنة للماس تصل من هذه المستعمرة إلى ألمانيا فى عام ١٩٠٩م، وبلغ محصول هذه السنة مليون جنيه استرلينى.

ورويدًا رويدًا استيقظ الهيريرو ليجدوا أن الأرض التى كانوا يتجولون فى أنحائها وعيون الماء التى كانوا يستخدمونها صارتا ملكًا للآخرين، وكانت مصادرة السلطات الألمانية لعدد كبير من الماشية قد حول غضب الهيريرو إلى رغبة جامحة فى القتال، ولما طلب زعماء الهيريرو فى المنطقة الشرقية استرداد بعض أراضيهم رفض الحاكم الألمانى طلبهم بقسوة، وأعدم اثنين من زعمائهم لإرهاب الآخرين، يصف الكتاب الأزرق مشهد إعدامهما «بأنهما حُملاَ حَمْلاً من عربة النقل، وبكبرياء وبرأس مرفوعة مشيًا نحو الشجرة التى ربطا فيها، كان الرعب قد جعلهما بين الموت والحياة وكان يجب تغطية عيونهما، ومضت جماعات إطلاق النار إلى أماكنها. . أوامر مقتضبة. . انتبه. . أطلق النار، ودوَّت طلقات البنادق فى وقت واحد عبر الجبال المجاورة كأنها الرعد وانتهت حياة المتمردين».

أشعل هذا الحادث الثورة فى النفوس، وفى ١٢ يناير ١٩٠٤م بدأت الحرب، كان جميع زعماء الهيريرو فى ميدان القتال، حاربت جماعات الهيريرو ببنادق عتيقة وكانت ذخيرتهم قليلة، ومما عاقهم عن العمل فى الميدان وجود زوجاتهم وأطفالهم ومواشيهم. واستدعيت للقتال قوة إضافية من القوات الألمانية العسكرية، و**أعلن القائد الألمانى ڤون تروثا أنه فى إطار الحدود الألمانية فإن كل هيريرو سيضرب بالرصاص، سواء كان معه سلاح أو لم يكن، وسواء كانت لديه ماشية أو لم تكن، وأنه لن يقبض على النساء والأطفال ولكنه سيبعدهم إلى الصحراء حيث يموتون جوعًا وعطشًا أو يرميهم بالرصاص.**

وفى أغسطس كانت بنادق الألمان السريعة الطلقات قد أجهزت على مؤخرة الثورة، واقتحم الهيريرو يائسين خطوط الألمان، وولت الجماعة كلها الأدبار إلى المناطق الجبلية النائية متجهة نحو الشمال، وهى أراض رملية لا ماء فيها، وهرول أنصار صامويل كماهيريرو إلى الصحراء وإلى بتسوانا المًجاورة حيث كان منفاهم.

لقد ضيقت الحملة الشعواء المميتة جميع السبل، وحكم على الهيريرو بالموت، وتبعثروا بلا حول لهم ولا قوة وقد تحطمت أطرافهم، وخارت قواهم وهم يتألمون وصار بعضهم جثثًا هامدة.

انتهت الحملة وكان يمكن للألمان الاتفاق لإقرار السلام، إلا أن الچنرال الألمانى

ڤون تروثا لم يكن على استعداد للاتفاق، إلا بعد أن يخوض الحرب حتى النهاية ويجعل من الثائرين عبرة لغيرهم، فقتل بالرصاص زعماء الهيريرو الذين استدعاهم من الميدان لمناقشة شروط السلام. وقال ڤون تروثا: إنه من المستحيل التفاوض حول السلام ما بقى زعماء الهيريرو، وضرب حصار حول المنطقة وسد فى وجوههم طرق الهرب وأصدر أمره بالإبادة.

أثارت الأحداث جميع قبائل جنوب غرب إفريقيا، وأظهروا سخطهم الشديد على الإدارة الألمانية إلى حد أن الرئيس الهوتنتوتى ويت بووى الذى كان قد بلغ فى ذلك الوقت الثمانين من عمره، جمع حوله كل قبائل الجنوب، وأعلن إنكاره للمعاهدة التى كان قد عقدها مع الألمان التى كانت تسرى لمدة عشر سنوات، وقاد رجاله مرة أخرى إلى الحرب.

واستمرت القبائل فى حرب عصابات بروح بائسة لمدة عام، ثم قتل الرئيس ويت بووى وهو يؤدى واجبه، وكان ڤون تروثا قد قرر مكافأة مالية لمن يأسره حيًّا أو ميتًا، ولكى يحول أتباعه وقوع جثته فى يد العدو حفروا قبرًا له فى ميدان القتال على وجه السرعة ودفنوه، ثم غطوا القبر بالحجارة.

ولما مات ويت بووى خلفه ابنه الذى قبلَ الاستسلام، ولكن رفض ذلك عدد من رؤساء الهوتنتوت بزعامة مورنجا، وواصلوا الصراع فى موقع متاخم لحدود محمية بتسوانا البريطانية، وعندما أحيط بهم هرب مورنجا إلى بتسوانا واختبأ فيها، وكانت حكومة الكاب اعتبرت هذا الزعيم لاجئًا سياسيًّا، ورفضت تسليمه للألمان ومنحته حق الإقامة، ولكن مورنجا ترك المكان فى بداية أغسطس ١٩٠٧م مضللاً حراس الحدود، ودخل الأراضى وشن عدة هجمات ولما أحيط به عاد إلى المحمية البريطانية، ولكن سلطات الكاب نظمت قوة للقبض عليه وتابعته إلى الصحراء بلا ماء، وعندما بوغت مورنجا مع عشرة من أتباعه، حدث اشتباك عنيف بينهم قتل فيه مورنجا وخمسة من رجاله. وبمقتل مورنجا زالت عقبة خطيرة أمام تحقيق السيطرة فى المحمية. واستمر القتال عامين آخرين من بعده، ثم اضطرت القبائل رويدًا رويدًا إلى التسليم وانتهت الحرب الفعلية فى بداية عام ١٩٠٩ م، واقتيد الهيريرو والهوتنتوت بعد الهزيمة جنبًا إلى جنب داخل السجون ومعسكرات العمل.

* * *

قضت الحرب على المقاومة القبلية، وقضت كذلك على الأيدى العاملة فى المستعمرة الألمانية، واستعان الحاكم الألمانى بالمبشرين؛ كى يشجعوا أولئك الهيريرو الذين كانوا لا يزالون يهيمون فى أرجاء الأرض على الالتجاء إلى المعسكرات. وكانت ممتلكات الهيريرو قد اعتبرت أملاكًا حكومية، وحرم عليهم الاحتفاظ بالماشية، وخرج الأحياء الذين كانوا يموتون جوعًا من الصحراء، كما خرجت الجماعات التى كانت مختبئة، واضطرت النساء السجينات إلى العمل فى مد السكك الحديدية، وقد اعتقل منهن الآلاف حيث كن يعشن فى حظائر ضرب حولها السياج، وكانت النساء يُجمعن فى فرق تتكون كل منها من ثمان يُربطن معًا بحبل ويقمن بجر عربات تسير على قضبان.

كلفت الحرب بضعة آلاف من ملايين الماركات وعدة آلاف من الجند الألمان، وإذا كانت الدعائم الثلاث للثروة فى المحمية هى التعدين والزراعة والعمل الذى يؤديه الأهالى، فقد دمرت الزراعة تمامًا وقُضى على ثلثى العنصر الأخير عنصر العمل، فقد هبط عدد الهيريرو من ثمانين ألفًا من أبناء تلك القبائل الغنية بماشيتها إلى ١٥ ألفًا من الآدميين الهاربين الذين يقضى عليهم الجوع.

وكان «هندريك ويت بووى» و«چاكوب مورنجا» آخرا المحاربين القبليين، اللذان كانت لهما سمات الأبطال، واللذان امتطيا صهوة الجياد فى عصر الحرب الآلية، قد تصديا للمعارك من أجل توفير الرعى، فغلبتهما قوة أوروبا المسلحة، لقد أدار المبشرون والتجار رءوس الإفريقيين ونهبهم التجار الذين لم يكونوا يروجون لسلعهم فحسب، ولكنهم روجوا لما يترتب على هذه التجارة من فوائد للحضارة المسيحية، ومما يدعو للأسى أن الإفريقيين الذين تفرقوا لاختلاف سلالاتهم وتاريخهم ولغاتهم وعاداتهم، لم يدركوا المصير المشترك الذى يريده العدو للإجهاز عليهم، وذلك قبل أن يعرفوا القومية الإفريقية التى تنادى بوحدتهم. ومع ذلك فإن عظمة ويت بووى قد جعلته نوعًا من هذه القومية.

كيف استولى الألمان على الأرض والماشية؟

إن السيطرة الحكومية الألمانية الفعلية على البلاد قد حدثت فى عام ١٨٩٤م

عندما تولى الميچور «تيودور ليتوين-Leutwein» الحكم بدلاً من فون فرانسوا، وعين الحاكم الأول على جنوب غرب إفريقيا الألمانية. هذا الميچور هو الذى مارس سياسة سرقة الأرض ومن عليها من بشر وماشية. وفى عام ١٩١١م أصدرت السلطة الألمانية فى جنوب غرب إفريقيا بعد قمع ثورة الأهالى إحصاء رسميّا، وبمقارنة هذا الإحصاء بالبيانات السابقة عند بدء الثورة وما قبلها، نجد أن هذا الشعب قد أبيد تمامًا ماديّا ومعنويّا.

قدر المفاوض البريطانى پالجريف فى تقريره المعد ١٨٧٧م أن تعداد الأهالى فى عام ١٨٧٦م كما يلى[1]:

١ - قبائل الأوفامبو تبلغ ٩٨ ألفًا.

٢ - الهيريرو ٥٨ ألفًا، قبائل برج دامار ٣٠,١٢١، الهوتنتوت المقيمون معهم ١,٥٠٠، الباستارد ١,٥٠٠، البوشمان ٣,٠٠٠.

٣ - ناماكوالاند الكبرى ومختلف قبائل الهوتنتوت ١٦,٨٥٠.

يكون الإجمالى العام لكل الأجناس ٢٣٥,٨٥٠.

ويقدر الحاكم الألمانى ليتوين عدد الأهالى وقت وصوله ١٨٩٤م، أن الأوفامبو ١٠٠ ألف، والهيريرو ٨٠ ألفًا، والهوتنتوت ٢٠ ألفًا، الباستارد ٤ آلاف، البرج دامارا ٤٠ ألفًا. المجموع الكلى ٢٤٤ ألفًا.

وفى كتاب آخر منشور فى ١٩٠٤م فإن الكابتن «شواب» من الجيش الألمانى سبقت الإشارة إليه عندما أراد أن يصحح التقرير الخاص بأهالى برج دامارا والبوشمن ذكر تقديراً مختلفًا أتى بالأرقام التالية المتعلقة بالقبائل الأخرى، وذلك فى أول يناير ١٩٠٣م: الأوفامبو ١٠٠ ألف إلى ١٥٠ ألفًا، والهيريرو ٨٠ ألفًا، والهوتنتوت ٢٠ ألفًا، والباستارد ٤ آلاف.

---

(١) يلاحظ أن تعداد السكان المقدر هنا وفى أماكن أخرى من الكتاب لم يكن يتم بمناهج علمية دقيقة إنما كان يجرى بالتقريب ويحتمل الزيادة والنقصان كما يحتمل الاختلاف باختلاف الكتّاب واختلاف الأزمنة، وهو وإن كانت أرقامه تقريبية إلا أن دلالته التاريخية والسياسية صحيحة خصوصًا أن الأرقام متقاربة وأن المعنى المستخلص منها معنى واحد.

كما يشاهد بالنسبة للهيريرو والهوتنتوت، فإن هذه المصادر المستقلة تمامًا عن بعضها، وهى تتعلق بسنوات ١٨٧٦م، ١٨٩٤م، ١٩٠٣م على التوالى تعطى ذات الأرقام والتقديرات. إن المنطق والشواهد يدلان على أن السكان من الهيريرو والهوتنتوت كانوا فى ١٩٠٤م حوالى ٨٠ ألفًا من الهيريرو وحوالى ٢٥ ألفًا من الهوتنتوت.

وفى عام١٩١١م بعد عودة الهدوء وقمع المتمردين جميعًا، فإن حكومة ألمانيا بجنوب غرب إفريقيا قد أجرت تعدادًا، وبمقارنة الأرقام تظهر أن الهيريرو الذين قدروا عام ١٩٠٤م بـ ٨٠ ألفًا قد أثبت التعداد الرسمى فى١٩١١م أن عددهم صار ١٥ألفًا بنقص قدره ٦٤ ألفًا و٨٧٠ فردًا.

والهوتنتوت الذين قدروا عام ١٩٠٤م بـ٢٠ ألفًا، أظهر الإحصاء الرسمى ١٩١١م أنهم ٩ آلاف و٧٨١ فقط بنقص قدره ١٠آلاف و٢١٩فردًا.

والبرج دامارا الذين قدروا فى ١٩٠٤م بـ ٣٠ ألفًا، أظهر الإحصاء والتعداد الرسمى ١٩١١م أنهم ١٢ألفًا و٨٣١ فردًا، بنقص قدره ١٧ألفًا و١٦٩فردًا.

والمجموع الكلى للقبائل الأربع قدر١٩٠٤م بـ ١٣٠ألفًا وأثبت تعدادهم فى الإحصاء الرسمى ١٩١١م أنهم ٣٧ ألفًا و٧٤٢ فردًا بنقص قدره ٩٢ألفًا و٢٥٨فردًا. وبكلمات أخرى فإن ٨٠٪ من الهيريرو كان قد اختفى، وأكثر من نصف الهوتنتوت والبرج شاركوهم ذات المصير.

وفى نفس وقت الإلحاق بألمانيا كان الهيريرو يشغلون جنوب غرب إفريقيا، وكان مجال نفوذهم يمتد من «سواكو بموند – Swakopmund» فى الغرب حتى حدود صحراء كالاهارى فى الشرق ومن جبال «أوتجو – Outgo» فى الشمال حتى وندهوك وجوبابس فى الجنوب. ومن المؤكد أن الهيريرو باستثناء الفترة التى كانوا فيها خاضعين جزئيًا ومؤقتًا للهوتنتوت ١٨٣٠م ـ ١٨٦٤م، فقد كانوا سادة أنفسهم فى هذه المنطقة. وإن أبناء هؤلاء كانوا يحبون الماشية وينظرون إلى تربية المواشى والرعى وجمع قطعان الماشية باعتبار مصيرهم واحدًا؛ لذلك كانت الكارثة التى لاقاها شعب الهيريرو من التجار الألمان والحكومة الألمانية ذات تأثير مدمر على عقل هذا الشعب.

إن الهيريرو شأنهم شأن كل الأهالى لم يكن لديهم تصور عن الطبيعة الشخصية للحكومة كما هى فى أوروپا، كانوا ينظرون إلى الشخص من رؤسائهم باعتباره أصل النشأة للحكومة وهو مثل الملك لا يخطئ وهو غير قابل لأنْ يُخلع ولا أن يُحاكم أمام أى مجلس وشخصه مقدس طوال حياته وبعد مماته، وعندما تزهق روحه تنضم إلى أرواح أسلافه الكبار وقبره يكون مكانًا مقدسًا(١).

إن الرئيس يطبق القوانين والعادات الخاصة بقبيلته ويحفظ الطقوس والشعائر القديمة، وما يدفعه فى ذلك ويحثه هو الخوف من أرواح السلف وسلطة الروح المقدسة التى صنعت العالم وخلقت مكانه.

ولم تنتهك عادات الناس فى هذا الشأن وتنتهك مشاعرهم إلا بعد أن أقام الألمان والسياسة الألمانية صمويل كماهيريرو وجعلوه أداة لتنفيذ سياستهم.

كان الهيريرو يعيشون فى نظام شبيه بالاشتراكى يسمى «إندا-Enda»، كان يجعل من المستحيل ترك الفقراء من الهيريرو بغير مواد الغذاء ووسائل الإعاشة، وإذا لم يكن الشخص يحوز قدرًا من الملكية، بسبب الأمراض أو سوء الحظ، كان يلجأ إلى الإندا الخاص به ليحصل على مال يقترضه.

ويشير پالجريف إلى واحد من الهيريرو تحت رئاسة «كمبازمبى» أحد رؤساء القبيلة كان يحوز ١٠٠ ألف رأس من الماشية، وعندما توفى كمبازمبى نفسه ١٩٠٣م قيل إنه كان يحوز ما يزيد عن ٢٥ ألفًا من رءوس الماشية، ويفترض أنه من ضمنها ما يخص الإندا التى تكون تحت رعايته.

وعندما ألحقت ألمانيا البلاد بها ١٨٩٠م كان لدى شعب الهيريرو ما يزيد عن ١٥٠ ألف رأس من الماشية، والكارثة التى حدثت فى ١٨٩٧م دمرت تقريبًا ما يزيد عن نصف هذا العدد أو ما يبلغ نحو ٩٠ ألف رأس.

وفى سنة ١٩٠٣م كانت قيمة ما صدر من الماشية من كل البلاد هى ٢٣ مليونًا و٣٣٧ ألفًا و ٦٨٢ مارك ألمانى تساوى أكثر من مليون جنيه استرلينى.

وفى سنة ١٩٠٥م كان من بقى حيًّا من الهيريرو قد انحدر إلى مستوى المعدمين ولم يكن يملك شيئًا.

(١) إن الألمان قبل تمرد الهيريرو انتهكوا قداسة المكان المقدس الذى يدفن فيه الرؤساء الكبار جاموها وكماهيريرو فى أوكاهنجا وحولوه إلى مزرعة للخضروات رغم كل الاعتراضات التى أبديت.

وفى سنة ١٩٠٧م أصدرت حكومة ألمانيا الإمبراطورية قراراً بمنع امتلاك الأهالى فى جنوب غرب إفريقيا ماشية كثيرة ومنع حيازتهم لها .

* * *

إن قصة التجار الألمان وكيف سرقوا الهيريرو وماشيتهم لمساعدة حكومتهم هى من أكثر القصص سواداً وإظلاماً فى التاريخ الألمانى فى جنوب غرب إفريقيا . وإن السرقة بالجملة وبدون حياء لماشية الهيريرو بواسطة الألمان كانت أحد الأسباب الرئيسية لقيام انتفاضة الهيريرو ١٩٠٤م . وقد كانت هناك أسباب أخرى ولكن كلها كانت ترجع إلى القمع الذى يمارسه الألمان ومساوئ حكمهم، وأحد هذه الأمور أنهم دسوا صمويل كماهيريرو باعتباره الرئيس الدائم وفرضوه على الهيريرو بعد وفاة الرئيس كماهيريرو ١٨٩٠م؛ وأدى ذلك إلى انشقاق الهيريرو إلى قسمين واستغلال أحد القسمين ضد الآخر، وهى سياسة فرِّق تسد .

إن الوريث الشرعى لكماهيريرو كان المفروض أن يكون نائب الرئيس على الهيريرو الشرقية «نيكودينس-NikoDenus» الذى كان الابن الأكبر لشقيق كماهيريرو، واعترف به رئيساً للاوروز . ولم يكن لكماهيريرو أولاد من زوجته الرئيسية وكان صمويل ابنا من زوجة غير شرعية فلم يكن وريثاً لأبيه وكان فقيراً، وكان فقره من المؤهلات من وجهة النظر الألمانية .

وعندما أنشئت وظيفة الرئيس الدائم كان من المنطقى أن تستخدم لصالح الألمان، وأتت هذه الفرصة ١٨٩٤م عندما صار ليتوين حاكماً .

وكما ذكر من قبل أنشأ الألمان نقابة للأراضى وقد جاء المهاجرون ليستقروا فى الأرض، وكان الأهالى يتمسكون بملكيتهم للأرض ولم يقبلوا أن يعطوها لغيرهم، ولكن النقابة تحت هيمنة الشركة الاستعمارية الألمانية ادعت ملكيتها ٥٠ ألف كيلو متر مربع شرق وندهوك وتمتد حتى جوبابس وموشاناس ، وتم هذا العمل بناءً على توصية د . كارل دوف الذى كان يشرف على المنطقة، ولكن القوات الألمانية المحتلة للمنطقة لم تكن قوية إلى الحد الذى تستطيع به أن تحمى هذه الأراضى، وأجل الادّعاء فترة وكان ذلك عام ١٨٩٢م .

وجدت الإدارة الألمانية أن أقصر طريقة عملية وأمينة للحصول على الأرض هى

شراؤها من الرؤساء ، ولكن لم تجد هذه الفكرة قبولاً من الألمان المهاجرين . وقد ذكر فون فرانسوا فى أبريل ١٨٩٣ م أن وكلاء النقابة تصرفوا بتهور وأطلقوا الوعود التى لا يستطيعون تحقيقها ، وطلب من برلين أن تسيطر على هذه المسألة وتعالجها ، ولكن د. كاير مدير المستعمرات فى برلين رفض هذا الطلب ، وذكر أن على النقابة أن تستمر فى عملها .

استمر المهاجرون فى الوصول وأخذ المزارع والأراضى ، وفى ١٨٩٤م قرر ليتوين حل المشكلة حلاً حاسمًا فذهب إلى أوكاهنجا فى ديسمبر ١٨٩٤م ، ووقع اتفاقًا مع الرئيس صمويل كماهيريرو تحددت به المنطقة بالحدود الجنوبية لأراضى الهيريرو .

ووعد الرئيس صمويل كماهيريرو براتب سنوى قدره ألفى مارك ألمانى (١٠٠ جنيه استرلينى) يدفع كل ستة أشهر على أساس أن خط الحدود الجنوبى قد تحدد وأن الهيريرو سيحترمونه وأن ماشيتهم ستخلى هذه الأراضى التى صارت تابعة للحكومة الألمانية . وهذه الحدود تمتد أكثر من ٤٠٠ ميل ، ولم يكن صمويل كماهيريرو معترفًا به من الرؤساء الآخرين . وكانت الحدود الجنوبية للمنطقة التابعة له أوكاهنجا أقل من سدس خط الحدود ، وبهذا الاتفاق وجد رؤساء الهيريرو الآخرين (ذكريا وجتجو ونيكوديمس وكهيميمنا) أنهم قد جردوا من حقوقهم وأملاكهم التى آلت إليهم من أسلافهم عبر الأجيال الماضية .

ومع تحديد خط الحدود هذا فقد كان من أسهل الأشياء بالنسبة للألمان أن ينتهكوها وأن يمنعوا الغير من انتهاكها . وإن خط الحدود بغير سياج لم يكن يعنى شيئًا بالنسبة للهيريرو الذين يرعون ماشيتهم بجواره .

ومع نهاية ١٨٩٥م كان فى مقدور ليتوين الحاكم الألمانى أن يتخذ حركته التالية ، أبرم اتفاقًا (كان خاصًا وسريًا ولم يوجد فى سجلات وندهوك) مع صمويل كماهيريرو يمكّن الحكومة الألمانية من السيطرة على كل قطيع من قطعان ماشية الهيريرو يوجد عابرًا لهذه الحدود .

لم يكن ثمة مسألة تتعلق بتحذير الملاك أو إعادة الماشية لهم ، فقد كان المستوطنون والنقابة فى حاجة ماسة إلى الماشية وإلى أعمال التجارة فيها . وقد ذكر ليتوين : «أن القطعان المصادرة ستباع وتقتسم بين حكومة ألمانيا والرئيس صمويل كماهيريرو .

وفى حين أن مصادرة الماشية بهذه الطريقة تؤدى إلى الحرب فإننا بالوسائل المشار إليها بالاتفاقية أمكن أن نحصل على وضع شرعى» .

وبمعنى آخر فهو يقصد أنه من ذلك الوقت فإن أى رئيس من الهيريرو يحاول أن يحمى قطيعه من المصادرة لن يكون مستنداً على وضع شرعى ، ومن ثَمَّ يمكن أن يُقتل باعتباره متمرداً ، وهذا بالضبط ماحدث للرؤساء نيكوديمس وكهيمينا .

نازع الرؤساء المحليون صمويل كماهيريرو فى حقه فى تحديد خط الحدود ، وكانوا على صواب من الناحية القانونية . وتجاهل الألمان اعتراضات هؤلاء وصادروا الماشية التى وجدوها عند هذه الحدود ، وخوفًا من أن يؤدى هذا إلى اضطرابات سياسية فقد كان الألمان حريصين لا على الحصول على قطعان الماشية فقط ، ولكن على السيطرة على أراضى هؤلاء القوم فقرروا تجريد الأهالى من أسلحتهم .

رفض الرؤساء أن يلقوا بأسلحتهم فشن الألمان حملة عليهم وأسروهم وحوكموا محاكمة عسكرية وأعدموا بإطلاق الرصاص عليهم باعتبارهم متمردين ، واستولوا على أعداد ضخمة من الماشية والأغنام التى كانت مملوكة لهم ولشعبهم وصادرتها الحكومة الألمانية عقابًا لهؤلاد المتمردين .

أخذ الأهالى المرعوبون عائلاتهم وقطعانهم وساقوها شمالاً بعيداً بقدر الإمكان عن الحدود الجنوبية أو عما سمّى بالحدود الجنوبية . وكانت هذه هى الوسيلة الوحيدة المعقولة والممكنة التى كانوا يقصدون بها المحافظة على ملكيتهم .

أربكت هذه الحركة الإدارة الألمانية ويصف روربخ هذا الأمر بقوله : « لقد كانت الضرورة الرئيسية لتأسيس الوجود الاستيطانى الجديد هى مد المستوطنين بالماشية ، وكانت كل مزرعة جديدة تؤسس تتطلب أن تمدها بالماشية فضلاً عن أشياء أخرى ، وكان ذلك يعنى بالنسبة للمزارع الألمانى الوافد حديثًا أن عليه فى بدء عمله كمزارع أن يدخل فى تجارة مع الهيريرو ليحصل على الأبقار التى يحتاجها .

وفضلاً عن تربية الماشية فإن مستقبل المزارع كان يتوقف على حصوله على ثيران الجر و النقل ، وكان الهيريرو هم المنتجين الرئيسيين لهذه الثيران ؛ لذلك فعندما انتقل الهيريرو بعيداً عن الأرض المصادرة وجد الألمان عجزاً فى الحصول عليها ، وأن

عليهم أن يذهبوا إليهم ويتاجروا معهم لشراء الثيران، وكانت تقدر بأثمان بخسة ويضطر الهيريرو لقبولها فلم تكن هناك محاكم يلجأون إليها ولا توجد شرطة تحميهم».

ويفهم الآن أنه مع حلول ١٩٠٣م فإن أكثر من نصف الماشية التى كانت موجودة فى أراضى الهيريرو صارت فى أيدى الألمان.

وحتى بعد ١٩٠٣م عندما أنشئت المحاكم الألمانية لم يكن الأهالى مسموحًا لهم بأن يؤدوا اليمين الذى يثبت حقًا ما. ويمكن التذكير هنا بأنه فى المحاكم فإن دليل الإثبات الذى يقدمه الرجل الأبيض يرجح أقوال سبعة من الأشخاص الملونين. وهكذا فقد كان باستطاعة الرجل الأبيض أن يحصل على الماشية من غير أن تساعده الحكومة ماليًا من الأرض المأخوذة من الأهالى، كما أجبر الأهالى على الدخول فى خدمة الرجل الأبيض وصاروا يعملون فى خدمة قطعان الماشية التى كانت من قبل ملكًا لهم.

لماذا أباد الألمان الهيريرو؟

كتب د. كارل دوف الألمانى يقول: «فى حين أن الهيريرو الفرد لا ينظر إليه كشخص شجاع جدًا، فإنه يتعين ألا ينظر إليه أيضًا باعتباره غير مؤذ، على العكس فإن الخطر الرئيسى منهم يأتى من عددهم، وأن عددهم هذا سيبقى مهددًا لنا ولأمتنا على الدوام فعددهم هو التهديد الحقيقى الذى يواجهنا؛ لذلك فإن الشفقة بالأهالى هى فى ذاتها قسوة تجاه البيض». وقد صارت هذه الكلمة القاعدة التى تحكم المستوطن الأبيض والجندى الأبيض والتاجر والشرطى، وكانت هى أيضًا تمثل السياسة المستقرة والمقبولة والمتفق عليها من الحكومة.

وعلى هذا فإن المستوطن الألمانى الذى يساعد فى تقليل عدد الهيريرو ينظر إليه باعتباره يقدم خدمة عامة. ولا يوجد شك فى أنه خلال الفترة من ١٨٩٠م-١٩٠٤م أبيدت أعداد كبيرة جدًا من الهيريرو بطريقة أو بأخرى، أو ماتت بفعل الجلد بالسياط شديدة القسوة وسوء المعاملة.

ورغم ذلك فإن هذا القتل قد جرى التعامل معه بخفة، فإما أن يتغاضى عن هذا

الفعل أو بأسوأ الظروف يقدم النصيحة للقاتل بأن من مصلحته أن يترك المكان ويذهب لمنطقة أخرى حفاظًا على سلامته من الثأر .

وفى حالات أربع فقط خلال الفترة ١٨٩٠م ـ ١٩٠٤م قدم القاتل الألمانى للمحاكمة ولم يسمع عما تم فى الإجراءات ، وأحيانا ما يكون السعى من جانب السلطات الألمانية إلى مواجهة الهجوم عليها بالسماح للقاتل بأن يعد تعويضًا يتمثل فى عشرات قليلة من الماعز إلى أقارب المقتول . وعندما أعفى ليتوين من الخدمة الحكومية فإن إحدى التهم التى وضعت ضده أنه ممن سببوا انتفاضة ١٩٠٤م؛ بسبب تراخيه مع الأهالى ! !

ويلاحظ أن القتلة من الأهالى دائمًا ما كان يحكم عليهم بالإعدام ، فى حين أنه فى القضايا الأربع التى قدمت للمحاكمة كانت أقسى عقوبة حكم بها على الرجل الأبيض هى السجن ثلاث سنوات ، وفضلاً عن ذلك فإن هؤلاء المجرمين البيض لم ينفذ أحدهم مدة العقوبة كاملة ، وهذا يؤكد قول ليتوين : إن قيمة الرجل الأبيض وحياته أكبر كثيراً من قيمة رجل من الأهالى .

إن موت المواطن من الأهالى نتيجة لقسوة المعاملة لم ينظر إليه أبدًا من المحاكم الألمانية باعتباره قتلاً ، وكما يقول ليتوين : «إن الأهالى لم يفهموا أبدًا أن هناك فارقًا مهمّا بين القتل وبين الضرب الذى يفضى إلى الموت ، والأهالى يعتبرونهما شيئًا واحدًا» . وكان الأهالى الذين يهاجمون رجالاً بيضًا دائمًا ما يرسلون إلى السجن وتوضع السلاسل والأغلال فى أيديهم وأرجلهم ، فى حين كان الجلد من جانب سادتهم أمرًا مسموحًا به وغير مقيد .

بدأت ثورة الهيريرو على أثر قتل جنود ألمان لأحد رؤساء القبيلة ، وسرعان ما امتدت نيران الغضب إلى كل مكان ، وما أن حل يناير ١٩٠٤م حتى كانت قبيلة الهيريرو جميعها بقيادة صمويل كماهيريرو نفسه ثائرة ، ثم انضم إليهم أغلبية أجناس الهوتنتوت فى الجنوب .

عندما علم الحاكم ليتوين أن صمويل كماهيريرو الحاكم الدائم ، الذى عينه الألمان قد انضم إلى شعبه اندهش كيف يصبح صمويل ضد الألمان ، وكتب إليه يسأله عن أسباب هذه الخطوة الغريبة ، وتلقى من صمويل الإجابة الآتية المؤرخة فى ٦ مارس ١٩٠٤م .

«إلى السفير الكبير للقيصر الحاكم ليتوين . . لقد استلمت رسالتك وإن ما كتبته لى قد فهمته تمامًا، وإنى أجيبك بما يلى : أنا لم أبدأ الحرب هذا العام لقد بدأها الشعب الأبيض، وأنت تعلم كم من الهيريرو قتله البيض ، وخاصة التجار سواء قتلوهم بالبنادق أو قتلوا فى السجون، وإننى دائمًا عندما كنت أقدم هذه الدعاوى إلى وندهوك لم يكن يقدر هذا الدم بأكثر من قطيع صغير من الماشية يتراوح بين ١٥و ٥٠ رأسًا، وإن التجار الألمان قد زادوا هذه الصعوبات عندما كانوا يسرقوننا فيأخذون مقابل قرض الجنيه الاسترلينى الواحد رأسين من الماشية . إن هذه الأشياء هى سبب الحرب، إن الملازم (ن) قد عاملنى معاملة سيئة، وكان يبحث عن سبب لقتلى ، وقد أخفى جنودًا فى الصناديق وبعثها لى فى الحامية ، وذلك بغية قتلى وأنا لم أذهب إلى الحامية وقد عرفت بنواياه، وعلى هذا فإن الملازم (ن) أرسل جنودًا ومعهم بنادقهم ورائى لقتلى، ولهذه الأسباب فقد غضبت وقلت يجب أن أقتل الرجال البيض الذين قالوا إننى لا بد أن أقتل، إن هذه العبارة وهى يجب أن أقتل سمعتها من رجل أبيض اسمه (×) وأنا الرئيس صمويل كماهيريرو» .

قرر صمويل كماهيريرو البائس ببندقيته القديمة وبعدة طلقات محدودة نحو ست رصاصات أن يثور دفاعًا عن حريته ضد جبروت الإمبراطورية الألمانية، ورغم يأسه وقلقه والمستقبل المرعب الذى ينتظره أصدر القرارات وأعطى الأوامر ؛ لكى يضمن ويؤمن سلامة النساء والأطفال الألمان المنتمين إلى من يضطهدونه ويعذبونه . هل يستطيع أحد أن يقول إن هذه المخلوقات الفقيرة ذات السلوك الحميد التى حملت النير الألمانى لأكثر من ١٤ سنة لم يكن لديها مبرر لاتخاذ هذه الخطوة خطوة الثورة؟

وهل يوجد إنسان فى العالم المتمدين يستطيع أن يؤكد أن ألمانيا كان لديها ما يبرر لها السماح لڤون تروثا وجنوده بأن يقوموا بالذبح بغير شفقة وقتل ٦٥ ألفًا أو أكثر من هذا الشعب سيئ الحظ، وأن يأخذوا كل ما لديه من ماشية وأبقار وأغنام وغيرها؟

لقد كان منظرًا مؤلمًا للغاية صورة الهيريرو ومعهم نساؤهم وأطفالهم وماشيتهم

مجهزين بسلاح فقير جدّا، وتكوينات تنظيمية حربية ضعيفة جدّا يواجهون جنود الألمان المدججين بأسلحة متطورة ؛ فماذا كان يستطيعون أن يفعلوا؟ .

فى أغسطس ١٩٠٤م هزمت القوات الألمانية الهيريرو وكبدتهم خسائر باهظة وأسرت آلافًا وأودعتهم السجون، وجمع صمويل كماهيريرو وعدد من رؤساء القبائل ماشيتهم، واتجهوا إلى صحراء كالاهارى ينشدون الحماية البريطانية، بينما أخذ الجزء الأكبر من أمة الهيريرو ما بقى لديه من ماشية وحاجيات وانسحبوا إلى جبال ووتربرج وإلى الشمال من جوبابس، ومع ذلك بدا للألمان أن ليتوين متراخ أكثر مما يجوز فعزلوه وأحلوا محله الچنرال ڤون تروثا، وكان هذا القائد الجديدً معروفًا فى برلين بقسوته التى لا تعرف الرحمة فى المعاملة مع الأهالى، وكان مجربًا من قبل فى ثورة البوكسر فى الصين، كما كان فى ذلك الوقت قد انتهى على التوِّ من قمع الانتفاضة العربية فى شرق إفريقيا الألمانية بأن أغرق هذه البلاد فى دماء الآلاف والآلاف من السكان رجالاً ونساءً وأطفالاً، وكان قد انتهى للتو من هذه المذبحة عندما أمره الإمبراطور ولهلم الثانى بالذهاب إلى جنوب غرب إفريقيا الألمانية للتعامل مع ثورة الأهالى، ولم يكن ڤون تروثا يبالى بالوسائل التى يحقق بها أهدافه سواء بالخيانة أو غيرها، وقيل للهيريرو وقتها بأنه يمكن الوصول للسلام إذا ضمنوا عودة قادتهم وتوقيع المعاهدة المطلوبة للألمان. وفى الوقت نفسه نشر ڤون تروثا قواته على هيئة سياج (كردون) ؛ استعداداً للمذبحة، وبعد أن أتم خططه أصدر أمر الإبادة الرهيب، وطبقًا لنصوصه: «لا يلقى رجل ولا امرأة ولا طفل ولا رضيع أى رحمة، اقتل كل واحد منهم ولا تقبض على أسير، إننى أريد أن أتأكد أنه لم يحدث بعد ذلك قط ثورة من الهيريرو» .

صدر هذا الأمر ضد أناس مهزومين مستعدين للاستسلام بدون شروط، وليست لديهم ذخيرة ولا أية وسائل يخوضون بها حربًا .

وقد ذكر ڤون تروثا فى تقرير بعث به إلى برلين وهو وارد فى كتاب روربخ :

«إن الوصول إلى اتفاق مع الهيريرو مستحيل بمراعاة أن كل رؤسائهم قد هربوا ولم يعد هناك من يمكن أن تتعامل معه الحكومة الألمانية . . وأن قبول الاستسلام الطوعى هو وسيلة تمكن من إعادة بناء التنظيمات القبلية القديمة، ولكن ذلك سيكون خطأ سياسيّا كبيراً ؛ لأنه يؤدى من بعد إلى عودة إراقة الدماء» .

كان من الواضح أن ڤون تروثا قد قرر بألا يسمح لأى هيريرو أن يستسلم حتى لو كان كل رؤساء الهيريرو قد هربوا، وأنه قرر بدم بارد أن يذبح هذه القبيلة التى لم يعد لها تنظيم ولا قادة ولا تستطيع أن تؤذى أحداً؛ وذلك ليضمن ألا يحدث من الهيريرو متاعب فى المستقبل.

وفى وصف للمذبحة ورد فى كتاب «رحلة إلى جنوب غرب إفريقيا» أحداث انتفاضة الهيريرو كما ذكرها مستوطن أبيض «لقد كانت الأرض أرضهم، وقد وجدنا لنجعلهم عمالاً زراعيين بغير أرض؛ ولذلك قاموا بالثورة، إنه صراع من أجل الاستقلال. إن الأمر يظهر بالطريقة الآتية كانت هناك بعثات للتبشير هنا أتت باسم الأخوة والإيمان بالله والمحبة والأمل، وكان هناك جنود ومزارعون وتجار يريدون أن يأخذوا الماشية من الأهالى ويأخذوا أرضهم بالتدريج ويجعلوا الأهالى عبيداً بغير حقوق شرعية، ولا يمكن أن يلتقى النشاط التبشيرى مع نشاط هؤلاء، إنه مشروع أحمق وسخيف. إما أن يكون لك حق أن تستعمر وأن تجرد الآخرين من حقوقهم وأن تسرقهم وتجعلهم عبيداً أو أن تبشرهم بالمسيحية التى تعلن التوجه إلى المحبة والأخوة».

وإذا كان هذا قول أحد الألمان المستوطنين فإن ما يلى هو أقوال الهيريرو عن معاملتهم خلال الثورة، قال أحدهم اسمة مانيويل تمبو وهو هيريرو كان يعمل مترجمًا لدى الألمان، قال فى إحدى المحاكم بلغته المحلية تحت القسم: «لقد أرسلت إلى أوكاهنجا تابعًا لأحد قواد الچنرال ڤون تروثا، وكنت أرعى خيوله وبعض الأعمال الأخرى، ولقد تعقبنا الهيريرو فى تقهقرهم من أوكاهنجا إلى ووتربرج ومن هناك إلى حدود صحراء كالاهارى.. وعند ترك أوكاهنجا أصدر ڤون تروثا أمرًا لقواته ألا يؤخذ سجين، وأن الكل يجب أن يقتل بصرف النظر عن السن والجنس، وقال: يجب أن نبيدهم حتى لا تضجرنا الثورات فى المستقبل.. ونتيجة لهذا الأمر فإن الجنود أطلقوا النار على كل الأهالى الذين نصادفهم بصرف النظر عن من هم وبعضهم كانوا أناسًا سالمين لم يكونوا اشتركوا فى الانتفاضة، وآخرون كانوا نساء أو رجالاً طاعنين فى السن لم يكونوا خرجوا من بيوتهم قط حتى هؤلاء أطلق عليهم الرصاص (وبهذه الطريقة فإن آلافًا من البرج دامارا المسالمين غير المؤذيين قد لاقوا مصير الهيريرو).. وكثيراً ما رأيت ذلك يرتكب. ومرة فى المسيرة

قرب هاماكارى بعد ووتربرج وصلنا إلى بعض الآبار، وكان الوقت شتاء والجو بارداً جدّاً وصادفنا امرأتين كبيرتين فى السن من نساء الهيريرو اشعلتا ناراً صغيرة ليتدفآ بها، وكان ڤون تروثا ورجاله موجودين، وقفز أحد الجنود الألمان وأطلق النار على المرأتين وهما جالستين، وبعدها ذهبنا إلى المعسكر وهناك أتت امرأة من الهيريرو تقترب منى وقيل لى أن أسحب المرأة إلى الچنرال فون ليرى ما إذا كان لديها معلومات عن الأعداء، فأخذتها إلى ڤون تروثا كانت امرأة شابه وبدت متعبة وجائعة، وسألها ڤون تروثا عدة أسئلة، ولكن لم يكن لديها رغبة فى إعطاء المعلومات؛ فأمر ڤون تروثا أن تؤخذ ويبقر بطنها، أخذت المرأة بعيداً وأتى أحد الجنود والسنكى فى يده وقدمه لى فقلت: إنى لا أقدر أن أقوم بشىء كهذا لماذا لا يسمح لهذه المرأة أن تعيش، فضحك الجندى وقال: إذا لم تفعل ذلك فأريك كيف يصنع الجندى الألمانى وأخذ المرأة وألقاها على الأرض وبقر بطنها وألقى السنكى بعيداً والدم يسيل منه، وقال: أرأيت فقد فعلتها، وكان هناك ضباط وجنود واقفون يشاهدون المنظر ولم يتدخل أحد منهم لإنقاذ المرأة، لم تدفن جثتها وصارت مثل جثث الآخرين متروكة تنهشها الحيوانات المفترسة.

وفى عودتنا من الرحلة وقفنا عند«هاماكارى»، وبالقرب من أحد الأكواخ رأينا امرأة عجوزاً من الهيريرو كانت بين ٥٠ و ٦٠ من عمرها تحفر فى الأرض تبحث عن الأبصال التى تنبت وحدها، وكان ڤون تروثا وقواده موجودين قال لها: إنى سأقتلك، فنظرت إليه ببساطة وقالت: وأنا أشكرك. وفى اليوم التالى تحركنا وقابلنا امرأة أخرى فى الثلاثين من عمرها كانت مشغولة هى الأخرى بالبحث فى حفر الأرض عن الأبصال والجذور ولم تلحظنا، فقام أحد الجنود بالاقتراب منها وأطلق الرصاص على ظهرها.

كنت شاهد عيان على كل ذلك وقد رأيت أجساد مئات من الرجال والنساء والأطفال فتيان وكبار فى السن ملقاة فى الطريق ونحن نمر عليهم، كلهم قتلوا بواسطة القوات المتقدمة.

«كنت لمدة سنتين مع القوات الألمانية وكنت دائماً مع الچنرال ڤون تروثا، ولم ألحظ أبداً أن شخصاً أسر»، هذا ما قاله چان كلود من أومارورو تحت القسم: «كنت فى أومارورو فى ١٩٠٤م، وكنت تحت قيادة الألمان أرشدهم كدليل على الطريق فى

إقليم ووتربرج وكنت أعرف المنطقة جيداً، كنت فى الفيلق الرابع تحت قيادة هوبتمان ريتشارد وكان قائد القوات هو الچنرال ڤون تروثا.

كنت موجوداً فى هاماكارى بالقرب من ووتربرج عندما هزم الهيريرو فى المعركة وبعد المعركة فإن كل الرجال والنساء والأطفال من كان أصيب ومن لم يكن أصيب، الكل وقع فى أيدى الألمان وقتل بغير رحمة.

كان الألمان يتبعون الآخرين وكل من كانوا يقابلونه يطلقون عليه الرصاص أو يبقرونه وكانت الغالبية العظمى من رجال الهيريرو غير مسلحين، لم يكونوا يقاتلون كان مجرد أن يتخذوا طريقهم ليذهبوا بعيداً مع ماشيتهم. وعلى مسافة من هاماكارى وقفنا فى معسكر عند عين للماء (بئر)، وهناك وجد الجنود الألمان طفلاً رضيعاً من الهيريرو لا يجاوز تسعة أشهر، وكان الطفل يصرخ وهو يحمله الجندى وأتى به إلى المعسكر، وتجمع الجنود حوله وأخذوا يقذفون الطفل بينهم من جندى إلى آخر ويحملونه كما لو كان كرة، وكان الطفل يصرخ من قلبه صرخات مدوية.

وبعد وقت أخذ منهم التعب من هذا اللعب، وقال أحد الجنود: إنى سأصطاد هذا الطفل وقذف به فى الهواء ثم تلقاه بسنك البندقية الذى اخترق جسده. لقد مات الطفل فى دقائق معدودة، وتلقى الجنود الألمان الحدث بموجة من الصراخ والضحك. لقد أمرضنى هذا الحادث وأشعرنى بالاشمئزاز، ورغم أنى كنت أعلم أن لديهم أوامر بقتل كل شخص، ولكنى ظننت أن تكون لديهم شفقة بطفل رضيع وقررت ألا أستمر معهم؛ لأن هذه الأشياء المرعبة أزعجتنى جدّاً فادعيت المرض، ولما كان قائدى مريضاً هو الآخر أمرت بأن أعود معه لأدله على الطريق، وبعد عودتى إلى بيتى رفضت أن أذهب مرة أخرى مع هؤلاء الجنود».

* * *

خاتمة

فى مقدمة الكتاب «الأزرق» فإن چورچس المدير الإنجليزى فى وندهوك أضاف إلى المكتوب فى يناير ١٩١٨م هذا التعليق الذى لخص فيه بإيجاز دقيق هدف الاحتلال الألمانى لجنوب غرب إفريقيا «لنشر كل المعلومات التى أمكن الحصول عليها سأجعل هذا الكتاب مؤلفاً ضخماً جدّاً. إن الهدف من هذا التقرير هو أن يستحضر الملامح الرئيسية فى شكل سهل وقابل للاستيعاب، وما ورد بهذا التقرير

obeikandi.com

كاف فيما أعتقد لكى لا تبقى شكوك عن الوضع المرعب الذى اتبعته الإدارة الاستعمارية الألمانية، سواء عملت تحت أوامر حكومة برلين أو تحت علمها أو بالنسبة للأهالى؛ إذ عاشوا تحت ظروف قاسية جدًا وسلب منهم كل شىء. . وسيظهر أن الأهالى خلال ١٧ سنة الأولى التى تلت إلحاق البلاد بألمانيا عاشوا بغير قانون، وإن الحماية التى كفلها القانون لم تكن من أجل الأهالى، وإنما كانت من أجل تأمين العمل اللازم لصيانة الماشية ولاستخراج الماس والنحاس بقدر الإمكان».

* * *

وأخيرًا. . بعد أن قضت ألمانيا على الثورات المعارضة لحكمها، لم تتح لأى فرد من أبناء القبائل جميعها الحصول على أرض أو ماشية دون موافقة الجهات الرسمية، وأصبحت توجه تهمة التشرد لكل شخص من الأهالى ليست له وسيلة معروفة للكسب، وعاشت المستعمرة فى خوف متصل خشية قيام ثورة أخرى، واستفحلت قسوة الأوروپيين فى معاملتهم للأهالى إلى حد يثير الفزع، وصب البيض جنون غضبهم الوحشى على الأهالى، واتخذوا من جلودهم البيضاء شهادة تعفيهم من نيل العقاب لارتكاب أبشع الجرائم.

لم تشب ثورات جديدة، فالحروب التى شنتها ألمانيا على قبائل الهيريرو والهوتنتوت كانت هى آخر حرب من نوعها فى إقليم جنوب غرب إفريقيا، وكانت أيضًا خاتمة المعارك التى انتصرت فيها ألمانيا فى ذلك القرن.

ومع نهاية الحرب العالمية الأولى بهزيمة الألمان أعطيت لحكومة جنوب إفريقيا العنصرية حق إدارة الإقليم فى ظل انتداب عصبة الأمم بمقتضى اتفاقية الانتداب المؤقت، ولكن حكومة جنوب إفريقيا رفضت التخلى عن سيطرتها على الإقليم بعد الحرب العالمية الثانية ورفضت تسليمه إلى مجلس الوصاية التابع للأمم المتحدة الذى صار يشرف على أقاليم الانتداب، بل قامت الحكومة العنصرية بمحاولة إدماج الإقليم فى أراضيها.

أصبحت قضية جنوب غرب إفريقيا من أشهر القضايا أمام المنظمة الدولية تمثل عجز الأمم المتحدة عن تنفيذ قراراتها وقدرة حكومة جنوب إفريقيا على تحديها،

وحولت القضية إلى محكمة العدل الدولية حيث قررت عدم شرعية ضم حكومة جنوب إفريقيا للإقليم. وفى عام ١٩٦٦م قررت الجمعية العامة إلغاء انتداب الإقليم وطالبت حكومة جنوب إفريقيا بالانسحاب فوراً منه على أن يديره مجلس الأمم المتحدة الخاص بناميبيا. رفضت الحكومة العنصرية التسليم بذلك، وفى عام ١٩٧١م عادت الأمم المتحدة فطلبت أن تدير الإقليم بنفسها فرفضت حكومة جنوب إفريقيا ذلك مرة أخرى.

بعد أن اتضح للوطنيين أنه لا فائدة ترجى من الإجراءات الدولية تبنت الحركة الوطنية بزعامة منظمة «سوابو-Swapo» (حزب منظمة شعوب جنوب غرب إفريقيا) الكفاح المسلح ضد حكومة جنوب إفريقيا، التى كانت سياستها العنصرية لا تقل فى بطشها عن الحكم الألمانى، وظلت الحركة الوطنية تواصل الكفاح الدامى حتى حصلت ناميبيا على استقلالها عام ١٩٩٠م، وقام نظامها السياسى منذ البداية على أساس التعددية الحزبية، ويتم اختيار رئيسها فى انتخابات عامة تجرى كل خمس سنوات، وأجرى آخرها عام ١٩٩٩م.

ومن أهم أحزابها منظمة سوابو Swapo كبرى حركات التحرر الوطنى قبل الاستقلال، ومؤتمر الديموقراطيينCOD ، والجبهة الديموقراطية المتحدة UDF.

والآن ألا يستحق شعب جنوب غرب إفريقيا التعويض عما لاقاه من إبادة وأذى بدنى ونفسى واقتصادى، إن هذا الشعب يجب أن يحتل الرقم الأول فى قائمة من يستحق التعويض.

* * *